الجنبيهي

ارشاد الامم ...

297:J33iA:V.1:c.1

الجنبيهي، محمد.

ارشاد الأمم الى ينبوع الحكم.

10-4613

297
J33iA
V.1
c.1

30 SEP 1986

297.
J33iA
v.1

كتاب

ارشاد الامم الى ينبوع الحكم

أذن مني وللرشاد تعال ... إن علمي عن العليم تعالى
كل علم مفاده الدين يسمو ... في المعالي وضوءه يتلالا
أطلب العلم للممات لتحيي ... اذ يموت الذي الى المال مالا
واهجر الزيغ واعتنق كل هدى ... يورث المرء في المسير اعتدالا
واليك البيان فالحق يعلو ... فاتبعه وخل عنك الجدالا

يا ألعوبة الطبيعيين وياذبائح المبشرين لقد جئناكم بملخص ما جاء به موسي وعيسي والنبيون من قبلهم وجاء محمد صلى الله عليه وسلم لتتميمه فذروا التعصب والجدل وخذوا ما آتاكم مولاكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون

حقوق الطبع محفوظة لخادم طوائف المصريين
محمد الجنبيهي مسكين المساكين

تكون هذا الكتاب من مقدمتين وخمسة مباحث وخاتمة وهذا جزؤه الأول وسيتلوه الجزء الثاني متى وقع هذا الجزؤ عند العقلاء موقع الإستحسان والقبول

طبع بمطبعة السعاده بجوار محافظه مصر سنة ١٣٣٨ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

فتنة العلم والملاهى سواء ... ان تعالى على العقول الهواء
وأخو العلم ان دهاه التباهى ... فهو للعيب والتعامى وعاء
وعلى الناس إن تعالى غرورا ... أسقطته لأسفل العلياء
واذا العلم لم يزدك انكسارا ... فهو والله ظلمة وعماء
والعليم الحكيم إن زاغ طيشا ... وتمطى الجدال فهو الوباء
كل علم يقود للزيغ جهل ... واعتداء ونشره عدواء
واتباع المضل مصراع غى ... ما بمن ضل فى المسير اهتداء
وكذلك الفنون مهما استنارت ... فى مرائى الذين هم حكماء
ما هى النور يا رفاقى ولكن ... عند أهل النهى هى الظلماء
وذووها وان زهوا كغصون ... مورقات رَوضانها غناء
فهى طوع الهوى تميل اضطرارا ... وله كم على الغصون اعتداء
فاحذر الزيغ يا أخا العقل واهجر ... علم قوم هداهمو إغواء
ما جميع العلوم معراج مجد ... هل لاهل العمى يتم ارتقاء
انما العلم ما به الوحي حيًّا ... ذلك القلب حيث حل الصفاء
قلب من كان للانام سراجا ... وبه تم للقلوب الجلاء
انما العلم يا أخا الدين هدى ... فيه للناس رحمة وشفاء
انما العلم يا أخا العقل عدل ... واعتدال وطاعة ووفاء
انما العلم يا أخا الرشد طب ... للتداوى به يزول الشقاء
أى علم لذى عناد أصم ... لا يلبى اذا تعالى النداء
أن هلموا الى الفلاح وصَلُّوا ... إن ربى تهابه العظماء

أي علم لمائل عن طريق   قومتها على الهدى الأدباء
يا كبار العقول عادوا عليما   أبغضته لزيغه العلماء
تشتكيه لربها الارض سخطا   تمنى له السقام السماء
ان طيش العليم داء دفين   لا يداوى ويُبرؤُه الإزدراء
ان علما يضلل الناس زيغا   بين أهليه والشرور إخاء
وذوو العلم ان أضلوا البرايا   هم لإبليس في الشقا قرناء
إذ تغذوا بما تقايا ابن سينا   هل تقاييه للحجا صهباء
أي علم لمدعى العلم زورا   وعن العلم عينه عمياء
ظنه الناس قدوة وإماما   وبذى الزيغ تقتدي الجهلاء
ان ميل النفوس للرشد صعب   والكثيرون للهدى أعداء
يا مريد النجاة دعهم يخوضوا   فى الملاهى ويلعبوا كيف شاؤا
فأمام الانام يوم طويل   مالغم الغرور فيه انتهاء
لاتمدَّنْ يا أخا الدين عينيك الى زهرة جناها الشقاء
وذر القوم يعجبوا بأوربا   ان دنيا أهل الهوى زهراء
ومرير الجفا لمن جُنَّ يحلو   والذى هام أرضه فيحاء
وفنون الجنون شتى ولكن   خص منا بعلمها السفهاء
والذى جُنَّ قد يظن احتراما   للمجانين أنهم عقلاء
ولهذا ترى الكثير تباهوا   بالتعامى لانهم سعداء
ومن الدين والكمالات نادوا   في المضلين انهم بُرآء
قل لعبد الهوى تمتع قليلا   ما وراء النعيم إلا البلاء
إن بعد القصور أدهى مقر   ما لذل الهوان فيه انقضاء

ووراء القبور أهوال حشر ليس فى الحشر والنشور مراء

يا الهى ويا ملاذى وعونى إرحم الخلق انهم ضعفاء

وعلى العبد بالمتاب تكرم أنت رب الورى وفيك الرجاء

اللهم لاتجعل حياتنا كحياة الهوام ولا تجعل موتنا كموت العوام وطيبنا للموت وطيبه لنا وجنبنا يامولانا الاعجاب والغرور وباعد بيننا وبين أهل الغفلة والشرور إنك ياربنا كريم غفور

اعلموا ياعقلاء الامم أن الاله القدير الذى أوجد جميع الكائنات مايرى منها ومالايرى وابدع بدائع المصنوعات الحسية والمعنوية التي لاتحيط بها العقول ولا تدركها مدارك المتفكرين ماسخر ماترونه من الموجودات العلوية والسفلية للإنسان وجعله بمنزلة الرئيس في هذه المملكة العظمى واتخذه خليفة في الارض الا لما علمه منه من قوة الإستعدادات والقوابل التى تقبل الكمال وتميل اليه فى أفراد وتقبل النقص وتميل اليه فى آخرين وان لفظ الكمال للفظ شامل لكل خير واللفظ الآخر شامل لكل شر وقد خلق جل شأنه الانسان جهولا وأخرجه من بطن أمه لايعلم شيئا ليكون فاقد الدليل والبرهان ان ادعي أنه عليم بطبعه أوان الكمال ذاتيٌّ له وجعل سبحانه وتعالى للكمال طريقا سماها الدين ووصفها بانها الصراط المستقيم وما هى الا التخلق بأخلاقه سبحانه وتعالى واتباع أوامره واجتناب نواهيه

وهل يستطيع التخلق باخلاقه جل شأنه وتقدست اسماؤه الى من كان من الافراد الذين تميل قواباهم واستعداداتهم الى الكمالات الأدبية وما كان الكمال من عمل الانسان ولا من أوصافه الذاتية ولكنه يأتى الانسان من أربع طرق إمدادية وتلك الطرق هى الاربع مسميات ذوات الاسماء

الشريفة التى ميز الله بها الانسان من جميع الحيوانات في المراتب الوجودية وفضله بها على جميع المخلوقات وأعنى به الانسان الكامل وأريد بالمسميات الأربع العقل والعلم والحكمة والأدب وما كان واحد منها من ممتلكات الانسان ولا من كسبه ولكنها مواهب لدنية يختص بها الحق سبحانه وتعالى من يشاء من عباده لاسباب اقتضتها حكمة التكوين والإبداع فان الحق تبارك وتعالى اذا أراد بقوم خيراً أوجد فيهم مرشدين الى طريق الهدى وأمدهم منه بما به تقوى بواطنهم وظواهرهم على القيام بواجبات العمل المراد منهم واذا أراد بقوم سوءاً زين لهم طريق الغرور والافتتان بواسطة أناس أشقياء يعطيهم من المدد ما به يستطيعون تحسين أى طريق من طرق الاهواء المتشعبة وتزيينها للناس فيقفوا بهم في مواقف الفتنة كما عليه حال أهل زماننا الآن وانه جل شأنه لفعال لما يريد والدليل على أن هذه الأربع مسميات ما هى من كسب الانسان هو ما ورد فى القرآن الحكيم من قوله تعالى فى معرض التوفيق العقلي (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) وقوله فى شأن العلم وما أوتيتم من العلم الا قليلا وقوله وعلمناه من لدنا علما وقوله لنبيه وقل رب زدنى علما ثم قال فى معرض الامتنان فى حق داود عليه السلام وأتيناه الحكمة وفصل الخطاب وقال في الخطاب العام ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وأما الدليل على أن الأدب هو من المواهب اللدنية فهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم أدبنى ربى فأحسن أدبى أو قال تأديبي الشك منى لا من الرواة وهذه المسميات هى القوائم الأربع التي استقرت عليها عروش الكمالات الانسانية والامتيازات البشرية والتى رقى بها الانسان الى أعلى درجات المجد الدائم . والعز القائم . الذى اضمحلت بجانبه عظمة الملوك وابهة السلاطين لأنه

لا نسبة بين ما أوتى الانسان الكامل الذى تعشق هاتيك المسميات وتحقق بكمالاتها حتى أصبح ربانيا يقول للشئ كن فيكون وبين مافيه الملوك والسلاطين من الزخارف الوهميـة التى هى مراقد الفناء ومرابض الزوال وهل هى الا الألعاب والملاهى المشار اليها بقوله تعالى (إعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم) الى آخر الآية الشريفـة وهل تكون العظمة المعارة والابهة الوهميـة مساوية للمجد الثابت والعز الشامخ الذى فاز به صاحب العقل والعلم والحكمة والأدب من طريق المحبة التى كانت موضع اعجاب سلطان العاشقين سيدى أبى يزيد البسطامى حيث قال ليس العجب من حبي لك وأنا العبد الحقير انما العجب من حبك لى وأنت الملك القدير

أقول هـذا وأنا على حال لا يعلمه الا الله من شدة الأسف وبواعث الخوف والخجل من عالم الخفيات لتعالى أصوات نبهاء هذا الزمن الذين أصبحنا لا نميزهم من السفهاء بحال من الأحوال ومن تطاول ألسنتهم بدعوى التلبس بهذه المسميات الشريفة التى لا نراها الا أسماء بلا مسميات ولا نرى مدعيها الآن الا من أنداد مسيلمة الكذاب وذلك لان لكل حق حقيقة ولكل اسم مسمى ولكل متصف وصفاً تظهر عليه آثاره وذلك كله مفقود لا وجود له فى أولئك الظالمين الذين لا يخجلهم الكذب ولا تخزيهم الدعاوي الباطلة ولو ظهر للناس بطلانها لانهم الى النقائص أقرب منهم الى الكمالات الأدبية فلذلك كان الواجب على كل مؤمن أن يبين للناس ما انبهم عليهم من شؤن هـذه المسميات التى التبس فيها الحق بالباطل الآن وظهر فيها الكذب بمظهر الصدق والله لا يحب كل مختالٍ فخور

فأما العقل فعنه نقول إن الناس الآن لهجرانهم الآداب الدينية قد

فقدوا مزايا التميز بين العقل الصحيح الموهوب المشار اليه بقول القائل

العقل مشكاة الهدى وبها تنورت القلوب

مصباحها النور الذي يهديه علام الغيوب

الذى من شأنه أن يحول بين صاحبه و بين كفران النعم الباطنة والظاهرة وأن يقيه غائلة نسيان الموت التى هى الآن أضر الامراض القلبية وأن يعقله عن متابعة الاهواء وعن الإعجاب برأيه حتى لايخطوا خطوة فى سبيل هذه الحياة التى كلها عقبات مهلكة إلا وراء رسول كريم أو مرشد حكيم ولست أعنى بالحكيم هنا من كان لحكماء زمننا هذا الذين هم مصادر الفتن ومجالب المحن ولكنى اعنى الحكيم الذي يكون حال حكمته كما يأتى بيانه والله على كل شهيد

وبين العقل السقيم الذى من شأنه أن يسترسل بالمتصف به وراء المعلومات التى لا تفيد من يعلمها فائدة فى أخلاقه ولا تخطوا به خطوة فى سبيل النجاة ولا تخلصه من أوحال حياته التى عاقبتها الندم والغم المديد بل ربما كانت سببا فى تخلقه باسوء الاخلاق الذميمة كالكبر والاعجاب بالنفس والغرور عند تزايد النعم وشدة البطش عند الغضب ومعانقة العناد والإصرار والتعاظم عند سماع الموعظة أو النصيحة استكباراً وانتصاراً للنفس ولو كانت على غير الحق والتمادى فى مخاصمة الاخصام وقهر المعارضين ولو كانوا محقين ومعادات من ينتقده في عمل من أعماله أو حال من أحواله وإن كانت سيئة أو يعترضه في أقواله وان كانت مكذوبة كما عليه حكماؤنا اليوم ومن كان هذا حاله لايخطو خطوة فى حياته الاوراء شيطان مريد أو طبيعى عنيد فلذلك كان الفارق بين العقلين كالفارق بين الظلمات والنور وبين الظل وبين الحرور واليك البيان والله يقول الحق ويهدى السبيل

فاما العقل الصحيح فهو النور المشار اليه فى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به) وكذلك فى قوله تعالى (ومن لم يجعل الله نورا فما له من نور) وقوله (أفمن جعلنا له نورا يمشي به فى الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها) وذلك النور متى جعل الله به عبداً من عباده أضاء له باطنه وأشرقت على ظاهره أسراره فيتكامل له الإدراك ويحسن التصور وتزكو النفس وتصغو الاسرار الروحية فلا يكاد صاحبه يعمل عملاً يستحق عليه عتابا ولا ملاما لا من الناس ولا من الله ولا يجعله يقول الا حقا ولا يتركه يتلبس الا باحوال الادباء الاطهار والامناء الاخيار وذلك هو ما طلبه الامام الشاذلي أبو الحسن بقوله واجعل لنا ظهيرا من عقولنا ومهيمنا من أرواحنا ومسخرا من أنفسنا كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً إنك كنت بنا بصيراً وصاحب ذلك العقل هو الحكيم الذى لاعناية له إلا بأوامر الله ولا يتناول إلا ما أباحه له الله ولا تميل الى المظالم نفسه ولا يضع الأشياء الا في مواضعها وأعنى بالمظالم كل ما يخرج الإنسان عن دائرة الإحسان فلقد قال الفضيل ابن عياض رضى الله عنه لو أن إنساناً أحسن في جميع أعماله وكان له دجاجة أساء اليها فما هو من المحسنين

﴿ وأما العقل الثانى ﴾ فما هو الا نتائج أفكار تنشاء عن تتبع المعلومات الكونية لتحصيل أغراض هوائية من تحصل عليها كان ذا جاه عريض ووجاهة بين أبناء جنسه ولا يسمى ذلك عقلاً إلا عند من لا عقل لهم لان أخس الناس حالاً وأحقرهم قدراً هو الذى تهابه الناس ولكنه لاقيمة له عند الله وأمر ذلك العقل يدور بين سعة الإطلاع وحنكة التجارب وكثرة الإختلاط بالمتكلمين فيتوهم صاحبه أنه أصبح من أرباب البصائر النيرة

فيجارى العقلاء بلا عقل ويتعالى على الفضلاء بلا فضل فيكون ضرره أكبر من نفعه وخطؤه أكثر من صوابه وتكون حاله كحال عزيز أمه الذى دأب على لسانة النساء فلما بلغ أشده أصبح يرضى أمه بازدراء الرجال الذين لا يساوى تعالهم

وهذا العقل الآن هو العامل القوى فى حركة النزاع والتخاصم القائمة بين كثير من الأفراد والجماعات بل وبين جميع الامم لانه لو كان لرؤساء الامم أو العائلات عقل صحيح لما وقع خلاف بين طائفتين ولا قامت حرب بين أمتين ولا تباغضت القبائل ولا تخاصمت الإخوة الاشقا ولكن الناس أصبحوا محاطين ببلايا الإعجاب ومهلكات الغرور فكانت عقولهم مجرد ظنون سيئة وأفكار خبيثة فهم لا يهتدون الى الكمال سبيلا الا بقائد ولا يعرفون الحكمة إلا بمرشد وقل أن تنقاد البغال وأن تسترشد أشرار الرجال ومن كان هذا حاله لا يفعل الخير الا لغرض لا يغفل عن الإساءة الا لمرض ولا يتودد لجاره الا لجر منفعة أو إثارة فتنة كما هو عمل عقلاء الطبيعيين من كل ملة وما الله بغافل عما يعمل الظالمون

ومن شاء أن يعرف الفارق بين العقلين من طريق الأعمال التاريخية فليتفقد أعمال الفاتحين فى كل زمن ليعلم مقاصد أهل الأدب والحكمة منهم ويقف على أغراض الآخرين الذين كانت عقولهم كعقول أهل هذا الزمن اذ لا نسبة بين أعمال صالحة صادرة عن قلوب طاهرة ملأت رحمة وإيمانا وعن حكمة لا تخالطها أغراض هوائية وعن علم منقول عن وحى سماوى فكانت أعمال أبطال أمناء ورجال فضلاء لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون فكان حظهم من أعمالهم الثناء الجميل والثواب الجزيل والفوز

برضوان الخالق والمخلوقين والله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر من أحسن عملا رضوان الله عليهم أجمعين

وبين الاعمال التي لا تصدر الا عن اغراض هوائية وغايات شهوانية ومقاصد تطارد الرحمة وتصارع العدل وتميت الانصاف وتجعل الضعيف ألعوبة للقوى وانها لاعمال أساسها العدوان وقواعدها الأطماع التي لا تتناهى وأركانها الخدعة والخيانة والمكر السيئ فهل يكون الاعجاب بها الامحض جنون أو فساد تصور وهل تكون تسميتها مدنية وحضارة مع كونها منتهى نكبات التوحش الا تمويها باطلا وتضليلا عاطلا

فهل لعاقل أن يقول بتساوى العقلين أو يدعى تقارب شؤون المدنيتين اللهم الا أن يكون متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة تالله ان القائل بذلك لفى ضلال بعيد ولولا أن الموضوع لا مجال فيه للتوسع فى المقال لجئنا بألف دليل على جنون العقلاء الآن وعلى ان عملهم ومدنيتهم الآن فى جانب مدنية رجال العدل وأهل الانصاف المتقدمين ما هي الا كالصنم المعبود فى جانب الاله الحق المقصود أو كالبهرج فى جانب الذهب الخالص ولكن أكثر الناس لا يفقهون أيها العقلاء العقل عقلان مجازى وحقيقى فالحقيقى هو ما لا يحوم بصاحبه حول مصارع الخطإ والخطل لا فى القول ولا فى العمل وبذلك العقل يكون تصحيح الاعمال وتحسين الأحوال وصدق الأقوال وذلك ما يشير اليه قوله تعالى مشير الى رسوله الكريم (وما ينطق عن الهوى) لانه أوتى عقلا حقيقيا نورانيا صحت به عقول كثيرة وذلك العقل لا يعمل الا على مصالح الحياة الأبدية لأنه يرى أن الاشتغال بما لا ثبات له ولا قرار عنما هو دائم الثبوت ومضاد للزوال ما هو الا محض غرور وغباوة وفساد تصور

أيها العقلاء العقل الصحيح هو النور المشار إليه بقوله تعالى (ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور) ومن وظائف ذلك النور أن يبصر صاحبه بعيوب نفسه وان يتخذ صاحبه إخوانه مرآة يرى حاله فيها فلا يمر عليه حال حسن من أحوالهم إلا أجهد نفسه في التلبس بمثله ولا يرى حالا سيئا إلا اضطرها إلى التباعد عنه وذلك مايشير اليه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن مرآة أخيه ومن وظائفه أن يزيل عن صاحبه الظلمات الكونيه التى جعلها الله سبحانه وتعالى حجبا بينه وبين أهل الغفلة من عباده وتلك الظلمات هي الفتنة المشار إلى بعضها بقوله تعالى (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا) والى بعضها بقوله جل شأنه (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد) الى غير ذلك من الآيات المحذرة من تلك الظلمات وما كانت ظلمات إلا لأنها تجعل المشتغل بها لا يبصر الطريق الموصلة الى السعادة الأبدية ولا تترك يتذكر من أعمال ربه معه شيأ لا فى الحال ولا فى الماضي ولا فى الإستقبال ولذلك قال الله تبارك وتعالى (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات) وماهى إلا أنواع الملهيات التى تشغل أهلها بالعاجل عن الآجل كما نراه الآن في حال القوم الذين هجروا دينهم ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آيات الله غافلون ومن وظائفه مدافعة تلك الشواغل وممانعتها عن أفئدة المتنورين به وإزالة آثارها من قلوبهم وذلك مايشير اليه قوله تعالى (ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذاهم مبصرون) وحيث يكون ذلك النور

يكون التوفيق والهداية فانه ان لم يكن هو هما فانهما ملازمان له ملازمة الحرارة للضوء الشمسي والرطوبة للضوء القمرى

ومن وظائفه الزام صاحبه اقتفاء آثار ذوى الأنوار ومتابعتهم ومحبتهم ومحبة الإلتحاق بهم والى ذلك كانت تتناهى رغبات النبيين والصديقين كما يعلم ذلك من آيات القرآن الحكيم فى مثل قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام حيث قال فى معرض الشكر (رب قد أتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين) وقوله حكاية عن سليمان عليه السلام حيث قال (رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلنى برحمتك في عبادك الصالحين)

ومن وظائفه تحلية القلوب بعد تخليتها يعنى انها إذا تخلت عن متابعة العادة ومعانقة الطبع حلاها بما تستنير به القلوب من الإرشادات الروحانية المشار اليها بقول القائل فى سؤاله حيث قال اللهم انى أسألك شوقا يوصلنى اليك ونوراً يدلنى عليك وروحا قدسيا ينفث فى روعى كل أمر انعجم علىّ فهمه أو عزب عنى علمه وأيدنى بروح منك وأكنفنى بنور من نورك أوضح به طرق الرشاد للسالكين وأبين به رتب الوصلة للقاصدين وافتح لى بابا من الأفق الأعلى والأفق المبين وارفع رقيمى فى عليين الى آخر ماطلب من المطالب التى أفنى أهل الذوق والعرفان آماد حياتهم فى طلبها فكانوا بذلك ملوك الدنيا والآخرة واحرار الدنيا والآخرة

ونريد بالحرية عنا الحرية الحقيقية التى من تحقق بها كان عبداً خالصاً مخلصاً لخالقه ومنشيه وذلك هو العبد الذى لم يكن مأوراً فى جميع أعماله

وأقواله وأحواله لشهوة من الشهوات ولا لغرض من الأغراض ولكنه رهين أوامر مولاه عاملا على طاعته فى جميع شؤونه حتى يكون عبدا مطاعا وذلك ما يشير اليه قوله تعالى (من أطاع الرسول فقد أطاع الله) وقد ورد في الخبر الصحيح من أطاع الله أطاع الله له كل شئ وهذه الحرية هى التى تفاضلت بها الرجال وكان النبيون هم أكمل الخلق فى التحقق بها وهى بعكس الحرية التى ينادى بها الطبيعيون الآن فانها بقدر ما ارتفع أحرار الحرية الأولى فى المعارج القدسية تسفل أصحاب الحرية الثانية فى دركات الظلمات الشهوانية والله لا يهدى القوم الفاسقين

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كمل من الرجال كثيرون وكمل من النساء آسية ومريم وما ذلك الا لان الاولى تحررت من رق شهواتها وأغراضها فلم تغتنها زخارف ذلك الملك العظيم الذى ادعى صاحبه به الالوهية وأما الثانية فلم تشتغل بشئ من شؤون الدنيا حتى ولا بالقوت الضرورى فكان تحريرها من الاغيار سببا فى تلك العناية التى كفت زكريا عليه السلام مؤونة الإشتغال بأمر قوتها فكان كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقا وهكذا يكون حال الأحرار يوم القيامة وفى حياتهم الأبدية وهو ما يشير اليه قوله تعالى (لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد) إلى غير قليل من الآيات الدالة على أن الأحرار في هذه الحياة الدنيا بالمعنى التى ذكرناها هم الأحرار في تلك الدار الآخرة وهمو المشار اليهم بقوله تعالى (لا يحزنهم الفزع الاكبر) وهم مرجع الضمير من قوله (لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون) ولتصحيح هذه الحرية كان نهى الله سبحانه وتعالى لكل أنبيائه وأصفيائه وخلفائه عن متابعة الهوى لكيلا يكونوا عبيداً

للشهوات أو للاغراض الهوائيـة فان الذى يهوى شيأ ويصرف إليه فؤاده فما هو الا رق لذلك الشئ ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تابعاً لما جئت به وما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الا داعياً إلى الله سبحانه وتعالى ومبيناً طريق الإستقامة التى من سلكها عرف نفسه ومن عرف نفسه عرف ربه ولا يعرف إنسان نفسه إلا إذا تفرغ للبحث عنها ولا يكون ذلك الا لمن لم يشتغل بشئ من الشهوات وما كان ارسال الرسل وإنزال الكتب الا لتعليم الإنسان كيفية الإعتدال فى تناول شهواته لكيلا يكون الإفراط فى تعاطيها أو التفريط فى التخلص من أوحالها موجبا للوقوع في الغفلة والفتنة التى أهلكت كثيراً من المسلمين ولذلك قال الله تبارك وتعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام تعليما له ولأمته (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينـة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) وقال لموسى عليه السـلام (إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى فلا يصـدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردي) وقال لداود عليه السلام (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) وكم لهذا العقل من وظائف وكم له من مزايا ولكن المقام لا يسع استقصاءها ومن أراد أن يحيط بها علما فعليه بمدونات الرجال الموصوفين بقوله تعالى (فى بيوت أذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله)

وأما العقل المجازى فما هو إلا الإدراك الحيوانى الذى ذكرناه من قبل وقد اشترك فيه كل ذى روح وشبح وذلك الإدراك هو أمر روحي

من شأنه العمل على جلب المنافع ودفع المضار عن الجسد وإنه لينموا مع كل حيوان كلما نمت قوته البدنية واتسعت دائرة مع لوماته الحسية مالم تحل بينه وبين ذلك النمو عوارض ضعف أو فتور وقد جعل الله سبحانه وتعالي الإنسان أوفر حظاً فى ذلك الإدراك من جميع الحيوانات لانه أقواها قابلية وأحسنها استعداداً لأن يتناهى بعمله الى أى غاية يروم ادراكها من إحدى الطريقين طريق الخير أو طريق الشر فلذلك تفنن الناس في تسمية ذلك الإدراك الحيوانى فمنهم من يسميه زكاء ومنهم من يسميه فطنة ومنهم من يسميه فلسفة طبيعية ومنهم من يسميه علما ومنهم من يسميه عقلا وما هو بالعلم المحمود ولا بالعقل الممدوح ولكنه كما قلنا مهما تعاظم أمره إدراك حيوانى اتسعت دائرة إحاطته بظواهر المعلومات الكونية فكان سبباً لزحزحة أقوام عن معالم الحق وهم يحسبون أنهم مهتدون إذ لو كان لامر كما يظنون لما وصف الله سبحانه وتعالى كثيراً من عقلاء الامم الذين كان منهم المهرة فى اختراع الاعمال وزخرفة المصنوعات العجيبة بأنهم كالانعام بل هم أضل وبانهم قوم لا يفقهون وقوم لا يعقلون

ومن وظائف هذا العقل وشؤونه أنه اذا انفرد بصاحبه لا بد ان يسلبه وصف العبودية الذى هو أشرف وصف تحقق به الخواص من البشر من كل ولي وصديق ونبي ورسول وانه لهو الوصف الذى لكل فرد من أفراد الفريقين المذكورين فى قوله تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) وما فى الوجود الا رب وعبد والاول من شأنه الغنى والعز والقوة والإقتدار والثانى من شأنه الفقر والذل والضعف والعجز ولا رتبة بين هاتين الرتبتين لموجود فى هذا الوجود وكما أنه لو تخلي الرب جل شأنه عن

وصف من أوصافه لما صح أن يكون رَبَّاً فكذلك لو صح للعبد التنحي عن وصف من أوصافه لما صح أن يكون عبداً ولكن قوة ذلك الادراك الحيوانى ربما أنست لؤماء العبيد أوصافهم الملتصقة بهم فيظنون أنهم المتصفون باضدادها ولكن المغتصب لا يتمكن من دعوى التملك الا اذا استند الى مستند يعضده ولا مستند لمن كان هذا حالهم إلا ما يسمونه الطبيعة وذلك هو الخسران المبين والضلال البعيد وانه لهو الحال الذى أهلك أقوياء الادرك في هذا الزمن الذى تقادم فيه عهد النبوة فقست قلوب بنيه فأصبحوا خاسرين .

ومن شؤون صاحب هذا العقل اعجابه بكل ما يتلبس به من قول أو حال أو عمل وكلما تزايد فيه نمو ذلك الإدراك الذى سميناه عقلا مجازيا تزايد معه الإعجاب والزهو والتفاخر حتي يصل الى درجة يزدرى فيها أقرانه فما فوقهم فيحول ذلك الحال السيء بينه وبين متابعة العارفين وكلما انحرف به غروره واعجابه عن تلك الطريق سلك بنفسه طريقاً لا يدرى نهايتها ظاناً أنه وحده هو الذى اهتدى الى أقوم طريق بل ربما توهم أنه هو العليم الحكيم

ومن تأمل حال النبهاء من أهل هذا الزمن الذين يدعون العلم لا العقل فى أممهم تحقق أن بين ما قلناه وبين أحوالهم مطابقة كُلِّيَةً لأننا لا نرى ولا نسمع من كل قائل منهم أو ناقل الا كلمات مزخرفة فحواها ازدراء المتقدمين واحتقار الأحوال التى كانوا عليها والخوض فى آيات القرآن الحكيم وصرف معانيها الى ما تهوى أنفسهم ولا نرى من غالب الناس الا استحسان ما صنعوا لأنهم لا يدرون ما هو الدين ولا يعرفون السبب

الذى هلك به كثير من الطبيعيين وهم لا يشعرون

أيها العقلاء لقد جاء الدين بعلومه الربانية مطهراً للقلوب ومنقيا للابدان ومخلصا للارواح من أوحال هذه الحياة التى كلها شرور وبلايا لا يحصيها الا الله سبحانه وتعالى وما من عاهة قلبية أو بدنية إلا ولها فى تلك العلوم دواء وشفاء وأعنى بتلك العاهات النقائص التى من شأنها أن تجعل العبد لا قيمة له عند الله ولو كان من أكابر الملوك فما من حكم شرعى وما من أدب دينى إلا وله في أخلاق البشر وأحوالهم تأثيرات مطهرة تقرب من الكمالات وتباعد عن النقائص ولكن أكثر الناس لا يفقهون لأنهم يقولون إن العلم الشرعى لا يوافق حال أهل هذا الزمن وانهم والله لكاذبون لأن الانسان هو هو ونقائصه هى هى وكمالاته هى هى والذى بين له الرشد من ألغى ما تغير ولا تبدلت أحكامه ولكن الظالمين فى ضلال بعيد

أليس ذلك العلم هو الذى يستعمل صاحبه في معرفة نفسه والبحث عن عيوبها ثم يدعوه الى معالجة ما هى مصابة به من الامراض القلبية والعاهات الهوائية ولا يزال صاحب ذلك العلم يعالج نفسه إذا رزق العقل حتى تكون مطمئنة تحت مجارى الأقدار لا عدو لها إلا الباطل ولا صديق لها غير الحق ولا تعرف سوى المعروف ولا تنكر إلا على المنكر وحتى لا تكون ميالة إلا إلى الأدب الذى تجمل به العارفون وحتى لا تتخذ المكر السيئ سلاحاً للحرب السلمى الذى هو شرعة المدنية الأوروباوية وحتى تتجنب الخداع والخيانة والزندقة والذبذبة والنفاق والغش والطمع والشح والحرص والحقد والحسد والتغالى على الناس بغير الحق والفتنة والكبر وازدراء الغير واحتقار الفقراء والاعجاب بالعلم أو المال أو المقال أو الحال الى غير

عن ذلك قالوا إنها أفيد الفنون وأعلى المعلومات لانها تقرب إلى الله والله أمرنا بذلك وانهم والله لكاذبون لأن طريق التفكر الذى مدح الله به المتفكرين غير طريقهم وغايته ما هى الغاية التى أدركوها وذلك لأن أكبر مفكر منهم مارست به سفينة أفكاره إلا على جُودىٍّ من شكوك وظنون لا تُغنى من الحق شيأ والله لا يهدى القوم الظالمين الذين تعدوا حدود ما أنزل الله من البينات والهدى وهم يحسبون أنهم مهتدون وهل يهتدى إلى الحق من اشتغل عن الحقيقة بالأوهام وترك الصانع وركن إلى الطبيعة المصنوعة بعد ما تبين له الحق وما بعد الحق الا الضلال فانى يؤفكون

يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له قام فاسق من الفساق يعارض تقياً من الأتقياء ويجادله في تقواه وكثرة خوفه وتباعده عن الملا والشهوات بقوله إن عقلاء الطبيعيين لا يقولون بحشر ولا نشور ولا يجدون لما أنت عليه من النسك نتيجة . فما كان جواب التقى لذلك الشرير الا أن قال له هل تعتقد أن الموت حق قال نعم قال فهل إذا جاءك الموت وأنت على ما أنت عليه من الملاهى وكان ما أخافه أنا من أهوال القيامة وعذاب القبر حق فماذا تصنع . ثم إذا جاءنى المرت وأنا على ما أنا عليه من الإستقامة والتصديق وكان الأمر بعد الموت على ما تظنه أنت فما الذى أخشى ضياعه أنا وما الذى أتندم على فواته من لذاذاتك التي من شأنها الفوات والزوال فبهت الشقى واستبشر بالمفاز التقى والله ولى الصابرين

أيها العقلاء أي فائدة للسامع أو القائل الذي يفنى أيامه في الكلام على المجردات أو فى الطبيعيات أو كلاهما وهو متلبس ولو بكبيرة من الكبائر النفسانية كالعجب أو الكبر أو الرياء أو ازدراء الغير أو غير ذلك مما

أوشؤنها الحربية أوغير ذلك فلا حاجة لذكرها لانها مما يسمونه من فروض الكفاية وربما كان تحصيلها جبريا عند الضرورة وفوائد هذه الفنون لا تزيد عن فوائد حشد الجنود بل ربما كان حشد الجنود فى وقت من الأوقات أفيد من تحصيل تلك الفنون

وأما الفنون الأخرى فمنها ما فيه فوائد لمحصله ولغيره كفن الطب فإنه أفيد للإنسان في حفظ حياته البدنية من جميع الفنون ولا غنى لإنسان عنه إلا الإنسان الكامل الذى كملت آدابه وألزم نفسه الوقوف عند حدود الآداب الدينية فى جميع حركاته وسكناته فذلك هو القوى الذى لا يحتاج إلى طب ولا طبيب ولذلك رد رسول الله صلى الله عليه وسلم الطبيب الذى أهداه له أحد الملوك وأظنه ملك الحبشة ثم قبل باقى الهدايا

ولا أرى من باقى الفنون ما هو أبعد نفعاً وأقرب ضرراً من الفنون التى يتكلم فيها المتكلمون على ما يسمونه المجردات والعقول العشرة وما وراء المادة وغير ذلك من الملاهى التى لولم تكن من هواجس الظنون لكان مثل العانى بها المشتغل بها عن دينه كمثل من دعى الى عمل كلف به من قبل ملك من الملوك لينال على ذلك العمل إن هو أتقنه أجراً عظيماً فلما خلا بنفسه تهاون بذلك العمل واختار من تلقاء نفسه الإشتغال بمعرفة ما عليه مملكة ذلك الملك من الشؤن ظنا منه أن ذلك يغنيه عما كلف بعمله وما ذلك الا حرمان وضلال مبين

ويماثل هذا المشتغل المحروم فى حرمانه من اشتغل بتحصيل المعلومات التى أفنى فى تحصيلها زعماء الفلسفة الطبيعية أعمارهم على غير طائل وألفوا فيها المؤلفات التى لا تفيد المحصل لها فائدة فى حاله ولا فى مآله وإذا ما سئلوا

ويضر الناس ومنها مايضره ويضر بآخرين ومنها ماهو موهوم الفوائد ومنها مافوائده عامة ومحققه

ولما كان النزاع الآن قاصراً على معرفة فوائد العلوم العصرية التى سموها عالية ومعرفة مضارها وقاصراً على المقارنة بينها وبين ماحوته الكتب التى يذعم سفهاء القوم انها رديئة صار الواجب البحث عن هذه الحقائق حتى لا يلتبس الحق بالباطل ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا أما تسمية السفهاء من الناس الفنون الرياضية أو غيرها من المعلومات علوما عالية عصرية فما هن الا تسمية جهلاء لا يعلمون مافعله الله بالامم الماضية والقرون الخالية وما كان منهم من الطغيان والغرور بسبب ما أفتنهم الله به من الفنون والصنائع المشار اليها بقوله تعالى (فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة) وما غفلتهم عن الآيات القرآنية بأعجب من تغافلهم عن الهرم الذى يرونه بأعينهم وعما هو عليه من عجائب الأعمال الدالة على ان أهل ذلك الزمن كانوا فوق علماء زمنهم بكثير من العلوم والمعارف التى هى من جنس مايعجبون به الآن وهل من صانع أو عالم أو مخترع من أهل هذا الزمن أو مُصنَّف أوشاعر أو واعظ أو مرشد أو مضلال جاء بما لم يأت به الاقدمون كلا إن دعوى ذلك لبهتان عظيم فما كانت تلك التسمية إلا تعمية وتضليلا للجهلاء لتكون عنايتهم بتحصيلها فوق كل عناية ليقضي الله أمراً كان مفعولا

وأما بيان منافعها ومضارها فيحتاج إلى زمن طويل إذا نحن جئنا به مفصلا فالأولى الاجمال فلذلك نقول أما الفنون التى تحتاج اليها السياسة الدولية لتكون أعمالها النظامية مزخرفة أو ضامنة لحفظ روابط ماليتها

الدعاوى وتبين أصادقون هم أم كاذبون

لا يخفى على كل عاقل أن الإنسان من مبدئه جهول لا يعلم ما هو العلم ولا يذوق لذته إلا إذا عُرِضَتْ عليه المعلومات وألهمه الله الإلتفات اليها أو البحث عنها لا فرق فى ذلك بين الطفل لذى يتلمس الثدى ليتناوله أول مرة أو يعرض عليه فيتناوله وبين أكبر مخترع أو عامل ألهمه الله عملاً من الأعمال وما ألهم الله عاملاً أى عمل الا لمصلحة استدعاها النظام الإبداعى كما ألهم النحل والنمل وجميع الحيوانات تدارك مصالحها الحيوية وما منها من حيوان أعجب بعمله الا الإنسان الجهول الذى أصبح لربه خصيماً مبيناً واتخذ الدعاوى الباطلة أساساً للتفاخر والإعجاب

ولما كانت درجات السعداء عند الله متفاوتة كتفاوت شؤن الأشقياء كانت الإمدادات الإلهامية تابعة لذلك التفاوت فعنايته جل شأنه برسله أعلى من عنايته بخاصة الصديقين من عباده وعنايته بالصديقين أكبر من عنايته بعامة أوليائه وعنايته بهم فوق عنايته بغيرهم من أهل الإيمان كما أن إمداداته لزعماء الفلسفة الطبيعة فوق إمداداته للسحرة أو الكهنة وامداداته لهؤلاء فوق إمداداته للمخترعين للآلات الفتاكة وهم فوق غيرهم من المخترعين لأنواع الزخرفة والملاهى وهؤلاء شرٌّ من باقى الأشرار من أرباب الحرف الدنيئة

وكل هذه الإلهامات الخيرية والشرية تضطر أصحابها إلى علم معلومات توصلهم الى إدراك غايات ما قصدوا فانقسمت تلك العلوم والمعلومات الى فنون شتى ولكل فن فائدة أو فوائد ومن تلك الفوائد ما هو قاصر على مصلحة العالم بذلك الفن لا غير ومنها ما ينفعه وينفع غيره ومنها ما ينفعه

الأحداث الذين ما كان مبلغهم من العلم إلا أن قالوا إن الكتب الدينية كتب رديئة وأن التعليم بها عقيم لا ترجى نتائجه وقالوا إن العلوم العصرية علوم عالية وزعموا انها معراج الإرتقى إلى معالم المجد وانها هى المطايا المسرعة بالأمم فى قصبات السبق الى التقدم وما زالت منتشرات الصحف تتوالى بما يماثل هذه المفتريات الصبيانية حتى توهم المطلعون على تلك الصحف أن كل علم لا يكسب صاحبه السفسطة وسوء الجدل ما هو من العلوم العالية وما ذلك الا جهل مهلك وضلال مبين

تأمل أيها المفكر العاقل والمتأمل البصير فى لفظ العلم ومعناه ترى أن منه ما هو إدراك معلومات تدرك بواسطة الحواس فيلتقطها الحِسُّ المشترك فيودعها خزانة الخيال التى يسمونها الحافظة ومنه ما يرد على القلب من عالم الملكوت من طريق الإلهام الربانى فلذلك كان لفظ العلم اسم جنس يتناول كل معلوم ولما كان العلم تابعاً للمعلوم بمعنى أنه لا علم الا بعد وجود معلوم والمعلومات لا تتناهى لذلك تنوعت العلوم وانتسب كل علم الى معلوم فيقال علم الطب مثلا وعلم الهندسة وغير ذلك ثم كان شرف العالم بحسب ما لعلمه من الدرجة فى المنفعة وشرف العلم تابعاً لمقادير المعلومات وهذا هو الميزان الصحيح الذى ينبغى للعقلاء أن يتحققوا به درجات العلماء والعلوم والمعلومات بمعنى أن كل معلوم تكون فوائده أنفع للإنسان يكون تعلق العلم به أفيد من غيره وأشرف وتكون درجة علمائه أعلى الدرجات وأرفعها إذ لا يتساوى المشعوذ والكاهن كما أنه لا تساوى بين الراقصة والناصحة وهى المعروفة بالخياطة وهكذا لا تساوى بين المعلومات واذا كان الأمر كذلك فما بقى علينا الا أن نزن فوائد العلوم ومقادير المعلومات وكثرة منافعها حتى نعلم حال أرباب

أنوارها متى ألفت حالاً من الأحوال لا يحول بينها وبينه إلا زاجر عجز أو رادع مرض

ولقد علم كل ذى علم بشؤن القرون الماضية أن عقلاء الأمم يُعَدُّونْ على الأصابع وان الذين تلبسوا بدعوى العرفان والعقل فى هذا القرن لا يحصرهم العدُّ ولا يحيط بهم الحد وما لذلك من سبب الا تَغَيُّب العقلاء فى أجداثهم ففقد الناس الموازين العقلية التى بها يتميز العاقل من المجنون فأصبح كل أحمق سفيه يتوهم جهلاً أن العقل الصحيح هو ما عليه باعة الكلام من الاقتدار على قلب الحقائق والتباس الحق بالباطل

وما كان الضلال والحيرة التي عليها ذوو العقول المجازية الآن إلا لأنهم اعتمدوا فى قطع آماد حياتهم والتخلص من أوحالها على تلك الإدراكات التى لا تتميز عن إدراكات كثير من الحيوانات بحال من الأحوال وما مثل تلك الإدراكات فى تناول الآداب الكمالية الا كمثل اليد للأعمى الذى خلق مفقود البصر فلا يفيده الضوء فائدة ولا حيلة له فى تناول المعلومات إلا السماع واللمس فهل يتساوى هو والبصير فى فوائد الضوء والتميز بينه وبين الظلمة كلا لا يستوى الأعمى والبصير وكذلك لا يستوى صاحب النور الإلهي الذى تولي الحق سبحانه وتعالى هدايته وإرشاده وصاحب العقل المجازى الذى لا يعرف نفسه إلا من طريق الغرور والإعجاب ولا يعرف ربه إلا من طريق السماع والإطلاع وفى هذا القدر من البيان كفاية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد

وأما دعوى العلم فعنها نقول

إن الله سبحانه وتعالى قيض لأهل هذا الزمن مرشدين من

الذى أنزل لأجله القرآن الحكيم فكان حالهم مع القرآن الآن هو حال الذين خاطبهم الله سبحانه وتعالى بمثل قوله (أو كلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون) والعجب كل العجب من موافقة الذين يدعون الإيمان بالقرآن لهؤلاء الضلال على ما هم عليه من الطغيان والإفك المبين وما ذلك إلا لأن نفوسهم ميالة إلى ما ذهبوا إليه من أن الإنسان لا ينبغى أن يكون مقيداً بقيود تكليفية فلذلك ركنوا إلى تلك التمويهات التضليلية وذلك شأن كل ميال إلى حال من الأحوال لا بد وأن تكون توجهاته القلبية متجهة إلى كل ما يميل به إلى أسهل طريق توصله إلى ذلك الحال المحبوب له وما كان القوم فيما جاؤا به من الأضاليل على حق واضح كلا ولكنهم جاؤا بأقوال زخرفية منشؤها ذلك الإدراك النامى فصادفت قلوباً لا عناية لها بما جاءت به الرسل وفاجأت نفوساً تواقة لمجارات الآمال والتكاثر فى الأموال لتسعد مع السعداء الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا

فكان مثل الجهلاء بالدين مع أولئك المزخرفين أو بعبارة أخرى المخرفين كمثل الصبى الذى يعشق المشعوذ أو كالشاب الذى تعلق قلبه بالملاهى والشهوات فهو لا يتمالك نفسه أن يحولها عنما مالت اليه ولا يستطيع أن يميل بها الى نصح الناصحين أووعظ الواعظين

ألا يرى المتأمل فى شؤن المتهتكين الذين قادتهم المقادير إلى التلبس بالأحوال الفاضحة أن الراقصة مثلا لو نهاها عن عملها ناه ثم قبحه لها بالأدلة الواضحة وقامت فى مقابلته امرأة ناقصة عقل ودين تحسن لها عملها لكانت أقرب انقياداً لتلك الخائنة من كل ناصح أمين وذلك لأن القلوب التى انطمست

أنوارها متى ألفت حالا من الأحوال لايحول بينها وبينه إلا زاجر عجز أو رادع مرض

ولقد علم كل ذي علم بشؤون القرون الماضية أن عقلاء الامم يعدون على الأصابع وان الذين تلبسوا بدعوى العرفان والعقل فى هذا القرن لايحصيهم العد ولا يحيط بهم الحد ومالذلك من سبب الا تغيب العقلاء فى أجدائهم فأصبح كل مرتاب مريض القلب يظن ان العقل الصحيح هو ماعليه باعة الكلام وسفهاء الطبيعيين

وما كان للضلال والحيرة التى عليها ذوو العقول المجازية الآن من سبب إلا أنهم اعتمدوا فى قطع آماد حياتهم والتخلص من أوحالها على تلك الادراكات التى لا تتميز عن ادراكات كثير من الحيوانات بحال من الأحوال ومامثل تلك الإدراكات فى تناول الآداب الكمالية الا كمثل اليد للاعمى الذى خلق مفقود البصر فماعلم ماهو الضوء ولا حيلة له فى تناول المعلومات إلا السماع أواللمس فهل يتساوى هو والبصير فى معرفة الضوء والتميز بينه وبين الظلمة كلا لا يستوى الأعمى والبصير كذلك لايستوى صاحب النور الالهى الذى تولى الحق سبحانه وتعالى هدايته وإرشاده وصاحب العقل المجازى الذى لايعرف نفسه إلا من طريق الغرور والاعجاب الذين هما جرثومة الجهل المذموم ولا يعرف ربه الا من طريق السماع الذى منشؤه الظنون والاوهام وفى هذا القدر من البيان كفاية لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد .

﴿ وأما دعوى العلم فعنها نقول ﴾

ان الله سبحانه وتعالى قيض لأهل هذا الزمن مرشدين من الاحداث

الذين ما كان مبلغهم من العلم الا أن قالوا أن الكتب الدينية كتب رديئة وان التعليم بها عقيم لا ترجى نتائجه وقالوا ان العلوم العصرية علوم عالية وزعموا أنها معراج الارتقى الى معالم المجد وانها هى المطايا المسرعة بالامم فى قصبات السبق الى التقدم وما زالت منتشرات الصحف تتوالى بما يماثل هذه المفتريات الصبيانية حتى توهم المطلعون على تلك الصحف أن كل علم لا يكسب صاحبه السفسطة وسوء الجدل ماهو من العلوم العالية وماذلك الا جهل مهلك وضلال مبين

تأمل أيها المفكر والمتأمل البصير فى لفظ العلم ومعناه ترى أن منه ماهو ادراك معلومات تدرك بواسطة الحواس يلتقطها الحسّ المشترك فيودعها خزانة الخيال التى يسمونها الحافظة ومنها مايرد على القلب من عالم الملكوت ومنها ماهو من طريق الفتح الصمدانى ولذلك كان لفظ العلم اسم جنس يتناول كل معلوم . ولما كان العلم تابعا للمعلوم بمعنى أنه لا يوجد علم إلا بعد وجود معلوم والمعلومات لا تتناهى لذلك تنوعت العلوم وانتسب كل علم الى معلوم فيقال علم الطب مثلا وعلم الهندسة وغير ذلك من العلوم ثم كان شرف كل عالم تابعاً لشرف العلم الذى تعلمه وكان شرف العلم تابعا لشرف المعلوم بين المعلومات وهذا هو الميزان الصحيح الذى ينبغى للعقلاء أن يتحققوا به درجات العلماء والعلوم والمعلومات فكل معلوم تكون فوائده أنفع للانسان فتعلق العلم به أفيد من غيره وأشرف وتكون درجة علمائه أعلى الدرجات وأرفعها اذ لا يتساوى المشعوذ والكاهن كما انه لا تساوى بين الراقصة والناصحة وهى المعروفة بالخياطة وهكذا لا تساوى بين العلوم كما أنه لا تساوى بين المعلومات واذا كان الامر كذلك فما بقى علينا إلا أن نعرف فوائد العلوم

ومقادير المعلومات وكثرة منافعها حتى نعلم حال أرباب الدعاوى ونتبين أصادقون هم أم كاذبون

لا يخفى على كل عاقل أن الانسان من مبدئه جهول لا يعلم ماهو العلم ولا يذوق لذته الا إذا عرضت عليه المعلومات وألهمه الله الإلتفات اليها أو البحث عنها لا فرق فى ذلك الالهام بين الطفل الذى يتلمس الثدى ليتناوله أول مرة أو يعرض عليه فيتناوله وبين أكبر مخترع أو عامل الهمه الله عملا من الاعمال وما ألهم الله عاملا أى عمل الا لمصلحة استدعاها النظام الإبداعى كما ألهم النحل والنمل وجميع الحيوانات تدارك مصالحها الحيوية وما منها من حيوان أعجب بعمله الا الانسان الجهول الذى أصبح لربه خصيما مبينا واتخذ الدعاوى الباطلة أساساً للتفاخر والاعجاب

ولما كانت درجات السعداء عند الله متفاوتة كتفاوت شؤون الاشقياء كانت الإمدادات الإلهامية تابعة لذلك فعنايته جل شأنه برسله فى الالهام أعلى من عنايته بخاصة الصديقين من عباده وعنايته بالصديقين أعلى من عنايته بعامة أوليائه وعنايته بهم فوق عنايته بغيرهم من أهل الايمان . كما ان امداداته لزعماء الفلسفة الطبيعية فوق امداداته للسحرة أو الكهنة وامداداته لهؤلاء فوق امداداته للمخترعين للآلات الفاتكة وهم فوق غيرهم من المخترعين لانواع الزخرفة والملاهى وهؤلاء شر من باقى الاشرار من أرباب الحرف الدنيئة

وكل هذه الإلهامات الخيرية والشريرة تضطر أصحابها إلى علم معلومات توصلهم الى ادراك الغايات التى توجههم اليها لبواعث الغيبية طوع الإرادة العلية فلذلك انقسمت تلك العلوم والمعلومات الى فنون شتى ولكل فن فائدة

أو فوائد ومن تلك الفوائد ماهو قاصر على مصلحة العالم بذلك الفن لاغير ومنها ماينفعه وينفع غيره ومنها ماينفعه ويضر الناس ومنها مايضره ويضر بآخرين ومنها ماهو موهوم الفوائد ومنهامافوائده عامة ومحققة

ولما كان النزاع الآن بيننا وبين الطبيعيين قاصراً على معرفة فوائد العلوم العصرية التى سموها عالية ومعرفة مضارها وعلى المقارنة بينها وبين ماحوته الكتب التى يزعم سفهاء القوم انها رديئة صار الواجب البحث عن هذه الحقائق حتى يظهورها لا يلتبسن الحق بالباطل ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا أما تسمية السفهاء من الناس الفنون الرياضية أو غيرهامن المعلومات علوما عصرية فما هى الا تسمية جهلاء لا يعلمون مافعله الله بالامم الماضية والقرون الخالية وما كان منهم من الطغيان والغرور بسبب ما أمدهم الله به من الفنون والصنائع المشار اليها بقوله تعالى (فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة) وما غفلتهم عن الآيات القرآنية بأعجب من تغافلهم عن الهرم الذى يرونه بأعينهم وعما هو عليه من عجائب الأعمال الدالة على أن أهل ذلك الزمن كانوا فوق علماء زمنهم بكثير من العلوم والمعارف التى من جنس مايعجبون به الآن وهل من صانع أو عالم أومخترع من أهل هذا الزمن أو مصنف أو شاعر أو واعظ أو مرشد أو مضلال جاء بما لم يأت به الأقدمون كلا ان دعوى ذلك لبهتان عظيم فما كانت تلك التسمية الا تعمية وتضليلا للجهلاء لتكون عنايتهم بتحصيلها فوق كل عناية ليقضى الله أمراً كان مفعولا

وأما بيان منافعها ومضارها فيحتاج الى زمن طويل إذا جئنا به مفصلا فالاولى الاجمال فلذلك نقول أما الفنون التى تحتاج اليها السياسة الدولية

لتكون أعمالها النظامية من خرفة أو لحفظ روابط ماليتها وشؤونها الحربية أوغير ذلك فلا حاجة لذكرها لانها مما يسمونه من فروض الكفاية وربما كان تحصيلها جبريا جائزاً عند الضرورة وفوائد هذه الفنون لاتزيد عن فوائد حشد الجنود بل ربما كان حشد الجنود فى وقت من الاوقات أفيد من تحصيل تلك الفنون

وأما الفنون الاخرى فمنها مافيه فوائد لمحصله ولغيره كفن الطب فانه أفيد للانسان فى حفظ حياته البدنية من جميع الفنون ولاغنى لانسان عنه إلا الانسان الكامل الذى كملت آدابه والزم نفسه الوقوف عند حدود الإرشادات الدينية فى جميع حركاته وسكناته فذلك الذى لايحتاج الى طب ولا طبيب ولذلك رَدَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الطبيب الذى أهداه له أحد الملوك وأظنه ملك الحبشة ثم قبل باقى الهدايا

ولا أرى من باقى الفنون ماهو أبعد نفعا وأقرب ضرراً من المعلومات التى يتكلم عليها المتكلمون مما يسمونه المجودات والعقول العشرة وما وراء المادة وغير ذلك من الملاهى التى لو لم تكن من هواجس الظنون لكان مثل المشتغل بها كمثل من دعى الى عمل كُلِّفَ به من قبل ملك من الملوك لينال على ذلك العمل ان هو أتقنه أجراً عظيما فلما عرفوه ذلك العمل تهاون به واختار من تلقاء نفسه الاشتغال بمعرفة ماعليه مملكة ذلك الملك من الشؤون ظنا منه ان ذلك يغنيه عن عمل ما كلف بعمله وما ذلك الا حرمان وضلال مبين

ويماثل هذا المشتغل المحروم فى حرمانه من اشتغل بتحصل المعلومات التى أفتى فى تحصيلها زعماء الفلسفة الطبيعية أعمارهم على غير طائل وألّفوا فيها المؤلفات التى لا تفيد المحصل لها فائدة فى حاله ولا فى مآله واذا ماسئلوا

عن ذلك قالوا انها أفيد الفنون وأعلى المعلومات لانها تقرب الى الله والله أمرنا بذلك وانهم والله لكاذبون لان طريق التفكر الذى مدح الله به المتفكرين غير طريقهم وغايته ماهى الغاية التى أدركوها وذلك لأن أكبر مفكر منهم مارست به سفينة أفكاره الاعلى جودى من شكوك وظنون لاتغنى من الحق شيئا كما وقع لابن سينا من الشك فى شأن الفلك أحادث هو أوقديم بعد ما أقام على حدوثه سبعين برهانا والله لا يهدى القوم الظالمين الذين تعدوا حدودما أنزل الله من البينات والهدى وهم يحسبون أنهم مهتدون وهل يهتدى الى الحق من اشتغل عن الحقيقة بالاوهام وترك الصانع وركن الى الطبيعة بعد ماتبين له الحق وما بعد الحق الا الضلال فأنى يؤفكون

(يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له) قام فاسق من الاشقياء يعارض تقيا من الاتقياء ويجادله فى تقواه وكثرة خوفه وتباعده عن الملاذ والشهوات بقوله ان عقلاء الطبيعيين لا يقولون بحشر ولا نشور ولا يجدون لما أنت عليه من النسك نتيجة . فما كان جواب التقى لذلك الشرير الا أن قال له هل تعتقد أن الموت حق قال نعم قال فهل اذا جاءك الموت وأنت على ما أنت عليه من الملاهى وكان ما أخافه أنا من أهوال القيامة وعذاب القبر حق فماذا تصنع . ثم اذا جاءنى الموت وأنا على ما أنا عليه من الاستقامة والتحامى وكان الامر بعد الموت على ماتظنه أنت فما الذى أخشى ضياعه أنا وما الذى أتندم على فواته من لذاتك التى من شأنها الفوات والزوال فبهت الشقى واستبشر بالمفاز التقى والله لا يضيع أجر العاملين

أيها العقلاء أى فائدة للسامع أو القائل الذى يفنى أيامه فى الكلام على المجردات أو فى الطبيعيات أو كلاهما وهو متلبس ولو بكبيرة من الكبائر

النفسانية كالعجب أو الكبر أو الريا أو ازدراء الغير أو غير ذلك مما هلك به كثير منهم وهم لا يشعرون وهل يكون ذلك الا ممن لم يتضلع من الدين ولم يتأدب بآدابه ولم يتبع سبيل المؤمنين

جاء الدين بعلومه الربانية مطهرا للقلوب ومنقيا للابدان ومخلصا للارواح من أوحال هذه الحياة التى كلها شرور وبلايا لا يحصيها الا الله سبحانه وتعالي وما من عاهة قلبية أو بدنية الا ولها فى تلك العلوم دواء وشفاء وأعنى بتلك العاهات النقائص التى من شأنها أن تجعل العبد لا قيمة له عند الله ولو كان من أكابر الملوك فما من حكم شرعي وما من أدب دينى الا وله فى أخلاق البشر وأحوالهم تأثيرات مطهرة تقرب المتحقق بها من الكمالات وتباعده عن النقائص ولكن أكثر الناس لا يفقهون يقولون ان العلم الشرعى لا يوافق حال أهل هذا الزمن وانهم لكاذبون لأن الانسان هو هو ونقائصه هى هى وكمالاته هى هى والذى بين له الرشد من الغى ما تغير ولا تبدلت أحكامه ولكن الظالمين فى ضلال بعيد

وذلك هو العلم الذي يستعمل صاحبه فى معرفة نفسه والبحث عن عيوبها ثم يدعوه الى معالجة ماهى مصابة به من الامراض القلبية والعاهات الهوائية ولا يزال صاحب ذلك العلم بنفسه حتى تكون مطمئنة تحت مجارى الاقدار لا عدو لها الا الباطل ولا صديق لها غير الحق ولا تعرف سوى المعروف ولا تنكر الا على المنكر وحتى لا تكون ميالة الا الى الادب الذى تجمل به العارفون وحتى لا تتخذ المكر السيء سلاحا للحرب السلمى الذى هو شرعة المدنية الاوروباوية وحتى تتجنب الخداع والخيانة والزندقة والنفاق والغش والطمع والشح والحرص والحقد والحسد والتعالى على الناس بغير الحق والفتنة

والكبر وازدراء الغير واحتقار الفقراء والاعجاب بالعلم أو المال الى غير ذلك مما يعجب به المعجبون ويفتتن به المفتونون من الموبقات القلبية التى ماجاءت التعليمات السماوية الا لتخليص أهل الاخلاص من وبال أوحالها وما هى للقلوب الغافلة الا بمنزلة المسخ للصور الجسمانية لانها تلحق القلب المتلبس بها بالنوع الذى هى من أخلاقه فكم من انسان جميل ذى زي حسن ولكنه يعمل أعمال الشياطين أو البهائم أو الوحوش الضارية وتراه مع بهجة منظره وجمال هيأته لا يهتدى الي الكمال سبيلا ولا يستعمل عوامل الاحسان الا مكرها أو لغرض من الاغراض وذلك حال قبيح ينهى عنه العلم السماوى الذى لا يقبله الا العقل الحقيقى الذى سبق بيانه ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

هذه هى أقل مزيا العلم الذى انزل الله الكتب لأجله وأرسل الرسل لتبيينه للناس وتخلق برسول الله صلى الله عليه وسلم فشهد له ربه بأنه على خلق عظيم وقالت عائشة رضى الله عنها لما سئلت عن خلقه كان خلقه القرآن

هذا هو العلم الذى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته بطلبه ولو بالصين يريد أقصى البلاد لأن طالب النجاة والفوز لا تجهده مشقات الاسفار ولا تزعجه مزعجات الخطوب والاخطار ولقد سمى عليه الصلاة والسلام طالب العلم منهوما وقارن بينه وبين طالب الدنيا بقوله فى الحديث الشريف منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب دنيا وما ذلك الا لأن لذة ذلك الطلب لا تتناهى فكما أن طالب الدنيا لو كان له وادمن ذهب لا يبتغى له ثانيا ولو كان له واديان لا يبتغى لهما ثالثا فكذلك طالب ذلك العلم كلما انكشف له سر من أسرار الربوبية وانفتح له باب من أبواب الملاء الاعلى اشتاق الى ماوراءه

وتعطش للاحاطة بشيء من الكثرة التي يشير اليها قوله تعالى (وما أوتيتم من العلم الا قليلا) كما بيناذلك في كتاب نشر الاسرار البشريه

كتب يحيى ابن معاذ رضى الله عنه الى أبي يزيد البسطامى أنى سكرت من كثرة ماشربت فكتب اليه أبو يزيد غيرك شرب بحور السموات والارض وما روى بعد ولسانه خارج وهو يقول هل من مزيد ثم تواله قائلا

شربت الحب كأساً بعد كأس فما نفد الشراب ولا رويت

وما كان مراد الله سبحانه وتعالى من قوله لنبيه (وقل رب زدنى علما) أن يكون مهندساً ولا منجما ولا محرر جريدة ولا صاحب فابريقة ولا كيماويا ولكنه يريد هذا العلم السماوى الذى يلحق ابن الماء والطين بالملائكة ويجعله مذكوراً في الملاء الاعلى ويكون له قدم صدق في طريق النبيين والصديقين وهذا هو العلم الذى طلبه فرض عين على كل مؤمن مكلف ليتناول منه ماقسمه الله له فيكون صحيح الايمان ويكون كمال ايمان كل متعلم بقدر مارزق من ذلك العلم إذا عمل به ونقصه بقدر مافاته منه . ولذلك قال الجنيد رضى الله تعالى عنه لو ان صادقا أقبل على الله تعالى ألف ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة لكان مافاته أكثر مما ناله وما ذلك إلا لانه ما أقبل عليه الا عن علم ولا أعرض عنه إلا عن جهل ولاشيء أقبح من الجهل بعد العلم

وما خص الله سبحانه وتعالى الانسان بهذا العلم وكلفه بالعمل به إلا لانه استخلفه في أرضه وسخر له جميع المخلوقات فكان من مقتضات ذلك العمل التكريمى أن يعلمه كيف يعامل الخلق والخالق وكيف يكون صلاح حاله وكيف تكون استقامته في تلك المعاملات التي هى الامانة المذكورة في قوله تعالي (انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن

يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا) فرزقه ذلك العلم وأرسل له من يعلمه طريق العمل به ليخلص من أوحال هذين الوصفين الذميمين بأن يداوم على الذكر وعلى الصدق وعلى الصبر وعلى الامانة وعلى العفاف وعلى الزهد وعلى الورع وعلى كل عمل صالح وحال صحيح فيتحقق بوصف نزاهة النفس وطهارة الاخلاق من العيوب التى ذكرناها سابقا فيتسنى له أن يكون خليفة من الخلفاء الأمناء أو تابعا من أتباعهم

هذا هو العلم الواجب على الانسان طلبه وأما باقى العلوم فانها ادراكات حيوانية تتعلق بالمعلومات المعاشية وما هى الا بمنزلة الحرف الصناعية التى يكتفى الطالب منها بما يساعده على سهولة أسباب معيشته فلو أن طبيبا مثلا زاحم نجاراً فى عمله لكان على نوع من العدوان وأما العلم الذى ذكرنا بعض خواصه فلا غنى عنه لفرد من أفراد البشر ولو علم جميع المعلومات الكونية ومن زعم أو ظن أنه لاحاجة له به فانما هو عاكف على شفا جرف هار من الحتوف من حيث لا يشعر وما بينه وبين مضاجع الندم ومواجع الغم والحسرة الا اقبال نهار الاجل وادبار ليل الحياة الدنيا التى ذكر رسول الله أن أهل الغفلة فيها نيام وهنا لك يكون مع اخوانه الذين هم مرجع الضمير من قوله تعالى (وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)

ومن تحقق صدق ما ذكرناه فى تقسيم العقل والعلم وتأمله بفكر ثاقب وتصوره تصوراً حسناً علم علم اليقين أن كل من يدعى العقل أو العلم مع مخالفته للآداب الدينية فما هو الا ظالم لنفسه جهول وان كان عليما حكيما وما هو الا كاذب فى دعواه فان مزية العلم حسن المعاملة مع الخالق والمخلوقين وحاشا أن تدرك هذه المزية الا بمتابعة لاوامر السماوية واجتناب المناهى ولا

يقوم بذلك الواجب الا صاحب العقل الرجيح والعلم الصحيح ومن لم يجعل الله نوراً فماله من نور وكان الله بعباده خبيراً بصيراً

وأما الحكمة والأدب فقد أصبح حالهما مع مدعيهما فى هذا الزمن هو الحال المشار اليه بقول القائل

لقد هزلت حتى بدى من هزالها كلاها وحتى استامها كل مفلس

أصبحت دعوى الحكمة والادب أسهل الدعاوى ادعاء لفقد المطالبين بالبرهان القاطع والدليل المثبت ولتساوى الناس فى ادعائهما إفكاوزوراً فقد أصبح آكل السحت يدعى الحكمة والأدب ولقد أصبح المنهمك فى لذاته وشهواته يدعى الحكمه والأدب ولقد أصبح المخادع المحتال يدعى الحكمة والأدب ولقد أصبح الظالم لنفسه ولغيره يدعى الحكمة والأدب ولقد أصبح المغتاب المتتبع لعورات المسلمين يدعى الحكمة والأدب ولقد أصبح السكير يدعى الحكمة والأدب ولقد أصبح اخوان الجدل والسفسطة يدعون الحكمة والأدب ولقد أصبح كل طبيعى لا يعرف له الها غير الطبيعة يدعى الحكمة والأدب ولقد أصبح عابد الصنم أوالفيل أوالصليب المصنوع يدعى الحكمة والأدب ولقد أصبح مستحل ماحرّم الله من الربا وأنواع المحرمات القولية والعملية يدعى الحكمة والأدب ولقد أصبح السفهاء من الناس الذين اتخذوا علماء الأوروباويين أساتذة على ماهم عليه من الغفلة والغرور والجهل بمقام الألوهية يدعون الحكمه والأدب ولقد أصبح الصحافيون وهم هتاكون الأسرار ومداحون الأشرار والذامون الأخيار والاكلون لحوم بعضهم البعض والشاغلون للناس عن كل ماخلقوا لأجله يدعون الحكمة والأدب ولقد أصبح فساق الأمم الذين يقولون ان اختلاف الائمة هو الذى أودى

بالدول الاسلامية يدعون الحكمة والأدب وقد جهلوا فضائل الفضلاء وجحدوا مزايا العقلاء الأمناء لأنهم قوم لا يفقهون ولقد أصبح كل ذى لسانة وزندقة يدعى الحكمة والأدب ولقد أصبح كل عالم لم يسلك سبيل المؤمنين يدعى الحكمة والأدب ولقد أصبح كل معجب بنفسه مفتون بحسه يدعي الحكمة والأدب الى مالا يحصى كثرة من كل مفتون تفلت من قيود الآداب وتخلص من سجن السكينة والوقار بسلطان الحرية والفلسفية الطبيعية وصولة الحضارة والمدنية الأوروباوية التى حالت بين أحداث هذا الزمن من متمدينى البنين والبنات وبين رشادهم وكان أمر الله قدراً مقدورا

وياليت الذين يدعون الحكمة والأدب من جميع الأمم وقفوا على أعمال الأدباء والحكماء وأقوالهم وأحوالهم ثم وازنوا بينها وبين ما هم عليه من الشئون حتى تبينوا الحقائق وعلموا ما هى الحكمة وما هو الأدب فان لكل شيء حقيقة من لم يحط بها علما كان كمن لم يسمع بذلك الشيء فى الجهل به وذلك هو ما يشير اليه قول القائل أتعرف فلانا قال نعم قال هل عاملته قال لا قال اذاً لا تعرفه وهكذا هو حال من يدعي الحكمة والأدب بدون أن يتلقى أسرارهما إما عن ربه إلهاما وتثبيتاً أو عن مرشد خبير تربية وتأديباً وما كل مرشد خبير بأسرار الحكمة والأدب كلا ولكن المرشد الحق هو الذى عرف طريق الحق وسلكها وراء أهلها المشار اليهم بقوله تعالى اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم . وقد بين الله سبحانه وتعالى فى آية أخرى أهل هذا الصراط بقوله أولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً

ذلك لتعلموا أن مسمى الحكمة والأدب ما هو الذى عليه سفهاء هذا

الزمن الذين مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون . وذلك لأنهم اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة ظانين أن الحكمة هى مجارات الأوروباويين فيما افتتنوا فيه من زخارف الاقوال والأعمال والأحوال التى تنسى المتلبس بها حاله مع ربه وما له وذلك هو الضلال البعيد تالله لو أن مسمى الحكمة والادب هو ما تمراته ونتائجه الوصول الى ما وصلت اليه أعظم الامم الاوروباوية من الرفاهية وسعة المستعمرات والمهارة فى الصنائع والاختراعات الالهامية والحصول على الاغراض الهوائية باستعمال وسائل المكر السيء والخيانة الخداعية لما كان لمكارم الاخلاق ولا لمحاسن الشيم مجال فى طريق الكمال الانسانى بل كان أكبر مخادع وأمهر مصانع في الناس هو الانسان الكامل وحاش لله سبحانه وتعالى أن يمتن علي عباده بانه بعث فيهم من يعلمهم الخداع والمكر فى مثل قوله (هو الذي بعث فى الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) وحاشاه جل شأنه أن يعنى ما عليه علماء الأوروباويين فى مثل قوله (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤتى الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) وما شهدنا ولا علمنا من حكمتهم ما يرشد الى الصراط المستقيم الذى سلكه خيار الأمم وصفوة الله من خلقه ولكنا نري أن أكثرهم علما وأكبرهم حكمة لا يبحث الا فى مالا فائدة فيه للعالم به اذ العامل العامى الذى تعلم الحرث والسقى وما تحتاج اليه النباتات والاشجار من المنافع الزراعية ربما كان علمه أنفع له ولغيره من علم ذلك الباحث الذى كلما توغل فى تلك المباحث الظنية توهم انه صار عليما حكيما ولو أنه كان حكيما لأدرك أن ذلك البحث وما وراءه من العلم ليس له أثر فى

اصلاح الاخلاق الذى هو منتهى مطالب الحكماء وأعظم المواهب الربانية ولكن أهل هذا القرن المشؤوم العابث بدينه الفاتك باهله العاق للخيار من أهل القرون من قبله يظنون أن الحكمة والادب عملان هما من مخترعات علماء الأوروباويين الذين ما كانت حكمتهم ولا أدبهم الا عبارات اختلس القوم معانيها من أقوال الحكماء وآثار العلماء وقلبوا حقائقها وشوهوا صورها فكان ذلك مصداق قول لقمان لابنه يابنى جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك لتقف على أسرار الحكمة السماوية فان الحكمة نزلت من السماء صافية فصرفها الرجال الي ما تهوى أنفسهم وأولئك هم الحكماء والعلماء الذين ظلموا العلم والحكمة فأغضبوا محمدا صلى الله عليه وسلم وأخجلوا المسيح عليه السلام وأسخطوا إله السماء والارض وخالفوا أهل الهداية والتوفيق فجمحوا وراء أهوائهم وسيئات ظنونهم فى سبل متفرقة لاتقربهم الا الى النار وانها والله لبئس القرار

أيها العقلاء ان الله تبارك وتعالي لم يرد بقوله (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا) شيئا من متاع الدنيا القليل الذي هو نقص من نعيم الآخرة والذي هو فى أعين العقلاء من الناس أحقر من أن تتوجه الهمم لجمعه أو أن تشتغل القلوب النيرة بتحصيله ولكنه جل شأنه يريد بالخير الكثير طهارة القلوب ودماثة الأخلاق وصلاح الأحوال وحسن الأعمال وظهور أثر الايمان علي من أوتى الحكمة فانها أكبر النعم وأجلها وهى نتيجة النعمة التى امتن الله بها على عباده فى قوله (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا) والله سبحانه وتعالي يحب أن يرى آثار نعمته على عبده ولا تظهر آثار الحكمة الا على عباد الله المخلصين الذين يتقربون

اليه بالنوافل بعد إتقان أداء الفرائض حتى يحبهم فيكون لهم كما كانوا له وهذه هي الحكمة التي لا تسكن بطنا ملئت طعاما ولا تخالط قلبا مشغولا بالزخارف وملوثا بالحرص والطمع ولا تجرى على لسان سباب أو مغتاب أو نمام أو مهزار أو ممازح أو كذاب أو متكبر أو غير ذلك من أنواع الموبقات التي نجى الله منها عباده المخلصين

وأما حكمة الطبيعيين التي امتلأت بها الآفاق الآن وانتشرت بها الصحف فما هي هذه الحكمة لأن أهل هذه الحكمة تواصوا بكتمانها فقد قال قائلهم لا تعطوا الحكمة لغير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم وانا لنرى أهل هاتيك الحكمة الشيطانية قد أزاعوها واتخذوها عدة للضلال والاضلال وشوشوا بها أفكار العامة حتى أفسدوا عقائدهم وصيروهم الى الكفر أقرب منهم للايمان والله سبحانه وتعالى لا يحب المفسدين وسنزيد هذا البيان إيضاحا في موضع آخر من هذا الكتاب ان شاء الله رجاء أن يجعل الله له في نفوس أهل الايمان أثرا صالحا يحول بينهم وبين هاتيك الدعاوى المهلكة وكان الله بما يعملون محيطا

وأما دعوى الأدب فعنها نقول

لا يشك عاقل له أدنى نصيب من العرفان في أن الأدب قرين الحكمة وأن بينها وبينه من التلازم والارتباط كما بين الحرارة والضوء الشمسي فمتى وجدت الحكمة الصحيحة وجد الأدب ومتى وجد الأدب تخلقت الحكمة وانفلقت نواتها ونبت في أرض القلوب أثرها وتعالى في سماء الكمال والمجد فرعها وحكمة بلا أدب فتنة وغرور وأدب بلا حكمة تملق ونفاق والأدب سر من أسرار الله تعالى لا يهبه الا للأمناء من عباده فلا أدب لمن لا أمانة

له وما من ذى علم أومال أو جاهٍ الا ويدعى الادب ولكن الادب الصحيح هو الذى لاتقل درجة تأثيره فى أخلاق الأدباء عن درجة تأثير الشكر الذي هو بمعنى صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خلق لاجله وقد قال الله تبارك وتعالي (وقليل من عبادي الشكور) فكذلك الادباء قليلون ولكن أكثر الناس لا يعلمون ما هو الادب

الادب أثر سرى روحى ملكوتى قدوسى يتولد فى النفوس من بين الخشية والاستقامة فاذا اقترن بالحكمة أنتج المراقبة ومحاسبة النفس علي الانفاس بمعنى ان الذي أوتى الحكمة والادب تأبى نفسه عليه ضياع نفس من أنفاسه فى حال أو قول أو عمل لا يفيده مع الله فائدة كمالية تجعل له عنده منزلة عظمى لانه سبحانه وتعالى اذا أنعم على عبد من عباده نعمة يحب أن يرى أثرها عليه ومن آثار نعمة الحكمة والادب مخافة الله تبارك وتعالى ومن خاف مقام ربه المطلع على سره وعلانيته لا يكاد أن يخطر على قلبه خاطر نقص قط ولا يكاد أن يأتى بعمل يخالف القانون السماوى ولا أن يتلبس بحال تمقته الآداب الدينية ولا أن يسلك فى سيره سبيلا غير سبيل النبيين وانى لعلى يقين من أن العقلاء لا يكذبونني فيما قلته وما أظن أن عاقلا من العقلاء يرضى أن يكون غاشا لنفسه فى هذه الموازنة التى اذا لم تحرر بميزان الشريعة لاتكون نتيجتها الا الحرمان الأبدى والله لا يحب كل خوان كفور

رويداً أيها العقلاء الذين خدعوا نفوسهم وأماتوا قلوبهم وشوشوا علي عقولهم بالدعاوي الباطلة التى منشؤها الغرور والاعجاب رويداً أيها الفضلاء الذين ادعوا الفضيلة زورا وتباهوا بما أتقنوه من العجب والخيلاء غروراً . رويداً أيها السادة ومهلا فما كل عامل مشكور . ولا كل عمل مبرور . والوصف

اذا لم يكن أصليا للموصوف به لا يثبت . والبذر فى التربة الغير الصالحة له لا ينبت . فليست الحكمة أيها السادة كما تظنون وليس الأدب كما تزعمون . إذ لا نسبة بين الحكمة التى تزعمونها وبين الحكمة السماوية فان الاولى قول وان تزخرف باطل . وعمل وان تزين عاطل . وحال فى القيامة ممقوت . وكلام لا يسع السامع عند سماعه ان كان عاقلا واعيا الا التعجب والسكوت . وسعى وراء ما هو سريع الزوال . وتمسك بما يطول الندم عليه فى آماد المآل . وصاحب هذه الحكمة كثير اللغط والغلط . وميال بطبعه الى كل شطح وشطط . حليف الغرور والاعجاب . فخور بين من هم دونه من الرفقاء والاصحاب . لايخالط غير أهل الغفلات ولا يأنس الا بأرباب الهفوات . صاحب هذه الحكمة من شأنه حب الرئاسة من شأنه التكبر بغير حق من شأنه ارادة التعالى على الناس من شأنه افساد نظام الممالك على الملوك وايقاظ الفتنة فى الامم والجدل فيما جاء به النبيون صاحب هذه الحكمة يعمل بما يرى ويقول ما يتخيل حيث لايبالى أرضى الله عنه أم سخط صاحب هذه الحكمة يرى أنه اله نفسه واله من هو دونه من الناس ويرى أن اصلاح الامم من خصوصياته حتى اذا ظهر عجزه أو أدركه الموت أو أضعفه المرض أو تناولته البلايا رجع الى ذل العبودية وتناسى دعوى الربوبية التى افتراها أيام العافية فيناديه الملك الموكل به بما نودى به فرعون فيما حكاه الله بقوله (آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) صاحب هذه الحكمة تتشعب به الطرق وتختلف به الاهواء فلا ثبات له فى أى طريق سلكها لا فى القول ولا فى العمل ولا فى الحال فيقول فى وقت ضد مايقول فى وقت آخر ويعمل اليوم ما يناقض عمله بالأمس ويتلون فى أحواله تلون الحرباء ولكن حسن السبك

قد ينفى الزعل ويخفيه عن أعين من لا علم لهم بدسائس أهل الزيغ المتفلسفين وسنأتى فيما يأتى ببعض الشواهد الوقتية التى تزيد ما نقول ايضاحا والله يقول الحق ويهدى السبيل

تالله إن الحكمة التى تدعونها الآن لحكمة تخالط الخمر فى الرؤس وتنمو بأكل السحت وتعاطى الربا وتتسع باتساع الجاه الموهوم والرزق المقسوم وان كان حراما وانها لتكبر بارتكاب الكبائر النظرية وأعنى بها اخلاط الخواطر والظنون التى تخالط عقائد ضعفاء الايمان الذين أزاغت بصائرهم زخارف الفلسفة الطبيعية عن نور الرشاد قبل أن يتفقهوا فى دينهم وقبل أن يتضلعوا من أغذية الاقتداء وحسن المتابعة التى تقوى بها النفوس على سلوك سبيل الصراط المستقيم وقبل أن يتخلصوا من شيطان الطيش وأوحال الغرور هذه بعض النقائص التى تنتجها الحكمة السفلية التى تدعونها الآن ولا حاجة لنا ولكم باستقصاء ذكر مهلكاتها فما الناس عنها بغائبين ولكن الأخذ الوبيل السماوى قد يساوى بين اللبيب والبليد فى التنكيل اذا ما تحتم القضاء المبرم وكذلك هو حال الأدب المزعوم الذى أعجب به أدباء زمننا الذين زعموا انهم هم الراشدون المرشدون فان كمال الأدب عندهم أن يكون الاديب رقيق القول ناعم البشرة نضر الملابس حسن التبرج كالغانيات حافظاً لكثير من الاشعار والنوادر المضحكة عجولا فى اختراع النكت عند المزاح لا تعتريه خشونة الرجولية الا عند مدافعة سائل أو فرار من نزيل ولا تستفزه المروءة الا لمقاومة مظلوم يجادل عن نفسه بين يدى جبار عنيد ولا يستعمل همته الا فى كل عمل ليس من الدين فى شيء ليقال هذا من أفاضل المتمدنين ولا يسبقه الى التملق لمن فوقه سابق ولا يلحقه فى ازدراء من هو دونه لاحق

واما الحكمة السماوية والادب النبوى فانهما يمقتان كل عمل او حال يشابه ماذكرناه

ولقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال رأس الحكمة مخافة الله فيا لها من كلمة من احسن جوامع الكلم لان مخافة الله تلزم من خالطت قلبه ملازمة كل خير وتجنب به كل شر وان شديد الخوف من ربه لا يقول على الله الا حقا ولا يعمل الا صالحا ولا يتخلق الا بكل خلق كريم اللهم انى أسألك خوف العالمين بك وعلم الخائفين منك ويقين المتوكلين عليك ولنذكر قليلا من أعمال الادباء وأقوالهم حتى يتبين لك أيها المطلع الفارق بين الحكمتين وتميز آداب أهل الكمال من آداب من هم الى النقص أشد قربا فنقول

ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة مكرها بعد سليمان بن عبد الملك والوليد ابن عبد الملك فلم يحل عز الملك بينه وبين ذل العبودية ورزقه الله الحكمة والأدب فما تزحزح قيد شبر عن طريق الخلفاء الراشدين وقد كان من أمره أنه شيع جنازة فلما انصرف الناس تأخر عمر وتأخر معه أناس وجلسوا ناحية فقال له بعض أصحابه ياأمير المؤمنين لم تأخرت وتركت الجنازة وأنت وليها فقال نعم نادانى القبر من خلفى يا عمر بن عبد العزيز ألا تسألنى ما صنعت بالأحبة قلت بلي قال أحرقت الأكفان ومزقت الابدان ومصصت الدم وأكلت اللحم قال ألا تسألنى ما صنعت بالأوصال قلت بلى قال نزعت الكفين من الذراعين والذراعين من العضدين والوركين من الفخذين والفخذين من الركبتين والركبتين من الساقين والساقين من القدمين ثم بكى عمر وقال ألا ان الدنيا بقاؤها قليل وعزيزها ذليل وغنيها فقير وشابها يهرم وحيها يموت فلا يغرنكم إقبالها مع سرعة إدبارها فالمغرور من اغتر بما لا يدوم والمفتون

من أجهد نفسه فى طلب ما ليس بمقسوم ثم قال أين سكانها الذين بنوا مدائنها وشقوا أنهارها وغرسوا أشجارها لقد أقاموا فيها أياما يسيرة فتنتهم العافية وغرهم النشاط وألهتهم الزخارف فركبوا المعاصى حتى أناخت بهم مطاياها على حافات الحفر والقبر إما روضة من رياض الجنة وإما حفرة من حفر النار فواخيبة آمالهم ويا حسرة قلوبهم لقد كانوا مغبوطين بما صنعوا ومحسودين على ما جمعوا ولقد علمتم ما صنع التراب بأبدانهم والديدان بلحومهم وأطال فى مثل هذا الكلام وهو يبكى الى أن قال يا ساكن القبر بعد أيام قلائل ما الذى غرك من الدنيا هل ظننت أنك تبقى لها أما رأيت من آبائك من قد نزل به الأمر وجاءه الأجل فأصبح لا يدفع عن نفسه ما نزل به وهو يرشح عرقا ويتلظى عطشا ويتقلب فى غمرات الموت وسكراته ثم قرأ (حتى اذا بلغت الروح الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون فلولا ان كنتم غير مدينين ترجعونها ان كنتم صادقين) وبكى طويلا ثم قال ليت شعرى ما الذي يلقانى به ملك الموت عند خروجى من الدنيا وما يأتينى به من رسالة ربى ثم تمثل قائلا

تسر بما يفنى وتشغل بالمنى ... كما اغتر باللذات فى النوم حالم
نهارك يا مغرور سهو وغفلة ... وليلك نوم والغرور ملازم
وتعمل ما لو تدره لبغضته ... كذلك فى الدنيا تعيش البهائم

هذا هو مثال حال من أحوال الحكماء فان الحكيم هو الذى يخاطبه كل شىء بلسان حاله ويفهم عن كل مخاطب له ما تشير اليه حقيقة أحواله الحكيم هو الذي يزن حاله بموازين التبصر والاعتبار. الحكيم هو الذى لا تفوته من القرآن دقائق الاشارات ولا يسمع عن جميع الاشياء الا رقائق العبارات وأولئك الذين

صدقوا وأولئك هم المتقون . ألا هل أهمل عمر بن عبدالعزيز عملا من أعمال خلافته مع زهده فى الدنيا . ألا هل عابه أحد فى عمل من أعمال خلافته . ألا هل مات مذموما . ألا هل ساءت سيرته من بعد موته كما ساءت سيرة ابن سينا عند ذوى البصائر من أهل الايمان . ألا هل ذكر اسمه ولم يقل الذاكر والسامع رضى الله عنه . اللهم ان حكمة عمر بن عبد العزيز وأدبه قد قارنا سيرته بسيرة الخلفاء الراشدين وهكذا هو شأن كل حكيم وأديب لا تضر دنياه بآخرته ولا تضر آخرته بدنياه فان الاستقامة تصلح الدنيا والآخرة والاعوجاج يفسد الدنيا والآخرة ولكن أكثر الناس لا يفقهون ولو أن حكماء هذا الزمن قاسوا حالهم بحال الحكماء لتحققوا فساد دنياهم وآخرتهم ولو أننا تتبعنا أعمالهم وأحوالهم كيفما كانوا وأينما كانوا التحققنا أنها أمهات الفتن وأسباب البلايا ولكنهم قوم لا يعقلون لانهم اغتروا بشهادة الفساق لهم بأنهم حكماء ولا شهادة لفاسق مارق من دينه

الحكيم هو الذي ان نطق كان كلامه حجة وان سكت بلغ بسكوته المحجة . الحكيم هو الذى سكوته عنده خير من كلامه وكلامه عند الناس خير من سكوته . الحكيم هو الذى يعرف حقوق الخلق والخالق عليه ويعرف طريق الوصول الى ادائها وكيف يحسن الاداء لأن احسان الاعمال شرط فى قبولها لقوله تعالى فى كتابه الحكيم (إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا) واحسان العمل هو تجنب كل ما يسخط الله وتتبع كل ما يرضى الله لأن خلط الطيب من الاعمال بالردىء منها ليس من عمل المحسنين ولذلك قال الفضيل ابن عياض رضى الله عنه لو أن العبد أحسن عمله كله وكانت له دجاجة فأساء اليها لم يكن من المحسنين ولقد قال رضى الله عنه لأن يصحبنى فاجر حسن الخلق

خير لى من أن يصحبنى عابد سيء الخلق وما قال ذلك رضى الله عنه الا لعلمه أنه لا يبقى مع حسن الخلق فجور ولا تحسن مع سوء الخلق عباده ومن سوء الخلق ازدراء الناس والاعجاب بالنفس والتكبر وغير ذلك من الموبقات التى سبق بيانها وما سلم منها حكيم من حكماء هذا الزمن

الحكيم هو الذى تمنعه حكمته من الاعجاب بقوله وعمله . الحكيم هو الذى يري الخير فى غيره ويرى الشر فى نفسه . الحكيم هو الذى يسلم القوس باريها بمعنى أنه يرى أن الكون لا بد له من مدبر حكيم لا يصل الى سر حكمته وتدبيره مفكر الا بارشاده وتعليمه فيقف أمام قدرته موقف الادب وينقاد الى تعليمه ويستسلم لرسالته التى أرسل بها رسوله . الحكيم هو الذى يتذكر سابقة جهله مخافة أن يطغى بعلمه ويعلم أن فوق كل ذى علم عليم الحكيم من كمل ايمانه فكان بشره فى وجهه وحزنه فى قلبه . الحكيم من يحب للناس ما يحب لنفسه . قال السرى السقطى رضى الله عنه أنا فى الاستغفار من قولى الحمد لله منذ ثلاثين سنة قيل له وكيف ذلك قال وقع الحريق ببغداد فاستقبلنى رجل وقال نجا حانوتك فقلت الحمد لله فأنا من ذلك الوقت فى ندم على قولي لأنى أردت لنفسى خيراً دون المسلمين

الحكيم كريم حليم رحيم بار متواضع حافظ لسيئاته ناس لحسناته لا يعد لنفسه الا عيوباً ولا يرى فضائل أعماله الا ذنوبا ولا يذكر من ربه الا الجميل فى السراء والضراء . الحكيم هو الذى يتحقق أنه ما خلق الا هدفا للبلايا ومرمى لسهام الرزايا فلا يسكن الى سارة ولا ييأس لضارة ولا يأمن مكر الله وان كان من أكبر العارفين . قال السرى السقطى رضى الله عنه لو أن رجلا دخل بستانا فيه من جميع ما خلق الله من الطير وخاطبه كل طير منها بلغته

وناداه يا ولى الله ثم سكنت الى ذلك نفسه لكان مغروراً وفى يد نفسه أسيراً ثم قال ان فيما وقع لسليمان ابن داوود عليه السلام لعبرة

سئل ذو النون المصرى عن الحكيم ما هى صفته فقال الحكيم هو الذي لا يدنس ظاهره بالمعارضات و باطنه بالمعاملات بل يقف مع الله موقف الوفاق والاتفاق ثم أنشد

وما العيش الا مع رجال قلوبهم تحن الى التقوى وترتاح للذكر

وقال له رجل متى أكون زاهداً فى الدنيا فقال اذا زهدت نفسك وهواك وقال رضى الله عنه لا يزالون على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف فاذا زال الخوف ضلوا وهلكوا بضلالهم وهم لا يشعرون

هذه هى صفات الحكماء فمن كان يدعي أنه حكيم فليزن حاله بالمطابقة بينه وبين أحوالهم حتى يعلم ما هو عليه من سيئات الاحوال فيستقيم علي الطريق القويم . ولقد سئل بعض الحكماء عن الاستقامة التى توجب الكرامة فقال أن تبدل خلقا مذموما بخلق محمود

والآن قد انعكس الامر فصار الخلق المذموم محمودا والمحمود مذموما لان هذا زمن ماتت فيه الكمالات وحييت فيه النقائص بفضل حكمائه وعلمائه

وليس الادب المحمود هو ما يتصنعه المصانعون ولكن الادب المحمود هو حال ينتجه الخوف من الله تعالى وينمو بالتفكر حتى اذا تمكن من القلب ألزمه السكينة والوقار وأمسك بأزمة الحواس عن كل ما لا يعنى وذلك الأدب هو معراج الابرار الى منازل المقربين الاخيار وهو الذى عناه ابن المبارك رضى الله عنه بقوله نحن الى قليل من الادب أحوج منا الى كثير من العلم ولقد قال ابن عطاء الادب هو الوقوف مع المستحسنات قيل وما معناه قال أن تعامل الله بما

يرضاه فى السر والعلانية وأنشد يقول

اذا نطقت جاءت بكل ملاحة وان سكتت جاءت بكل مليح

وأقل درجات الادب عند الادباء أن لا يرى الانسان فى الناس من هو شر منه وأن لا يرى لنفسه قيمة وأن يرى نفسه محتاجا الى من يصلحه ومن أراد أن يعرف حقيقة الحكمة والادب فليتفقد آثار الادباء ومدونات الأمناء الذين استأمنهم الله على عباده وألزمهم كلمة التقوى وكلفهم بارشاد الضالين والأخذ بيد الحائرين فضلا منه ورحمة وليتجنب أقاويل أهل الزيغ والزندقة فان لكل مجال رجال . وان من العبث وسوء العمل أن يتتبع السالك فى طريق الرشاد والاستقامة أناسا لم يكونوا من أهلها بمعنى أن المؤمن الحق لا ينبغى له أن يتبع من لا إيمان لهم ويترك طريق أهل الايمان مع علمه بقول الله تبارك وتعالى (ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً) فهل ينبغى لمن يريد أن يتقرب الى الله بعمل من أعمال البر كالذكر أو الصوم أو غير ذلك من أنواع القرب أن يسأل طبيعيا من الطبيعيين عن مفاوز تلك الطريق كلا والله ان ذلك لضرب من ضروب الجنون وما مثل من هذا حاله إلا كمثل من يسأل حداداً أن يثقب له درة أو يصنع له ثوبا من الحرير ولكن كثيراً من الذين جهلوا مسميات الاربعة أسماء التى ذكرناها قد اغتروا بالخزعبلات أولئك الضلال الذين زعموا أنهم هم العلماء والعقلاء والحكماء والأدباء فسلكوا سبيلهم وإنها والله لسبيل الشيطان ومسربة الخزى والحرمان ولكن أكثر الناس لا يفقهون

فما أجهل الانسان وما أظلمه لنفسه وما أسرع ما يدعى العلم والحكمة إذا ما مرّت عليه علوم نقلية أو نظريات فكرية فيأخذ الغرور بمخنقه حتى

يتوهم من نفسه أنه أصبح عليما حكيما وما تعلم إلا علم الشيطان ولا سلك إلا سبيل الحرمان ولكن أهل الغرور فى ضلال بعيد

فليعلم المسلمون الذين هم أهل لا اله إلا الله أنهم لا تحسن مع الله معاملتهم وأنهم لا يفوزون بما فاز به أهل الايمان الا اذا أوجد الله فيهم من عظماء الرجال وعقلائهم من أهل العلم والحكمة والادب من يعلمهم أمر دينهم ويرشدهم الى طريق الفلاح التى سلكها أكابر الرجال بارشاد الله وتوفيقه

فرحم الله إمرأ عادى الاعجاب والغرور وسلك طريق الاعتدال ورزقه الله حسن الموازنة فوزن حاله بالميزان الذى ذكرناه حتى اذا تحقق من نفسه القصور وعلم أنه لا نسبة بين حاله وحال الحكماء الحقيقيين ولا نسبة بين عمله وأعمال العقلاء المتمدينين ولا بين أدبه وآداب الفضلاء المتنسكين وأن ما علمه من العلوم العقلية لا يفيده فائدة عند الموت ولا فيما بعده وأنه لا يجد لنفسه موقفا يوم القيامة بين طائفة من طوائف الناجين رجع على نفسه باللام وعاتبها على دعواها الكاذبة وناجاها يا أيتها النفس الامارة بالسوء ان الله سبحانه وتعالى يوم القيامة يسأل الصادقين عن صدقهم ويحشر الطوائف زمراً زمراً فالى أى طائفة تتخيرى اذا نودى للطوائف هلموا الى مواقفكم فلا أنت من الحكماء الذين خرجوا من الدنيا كما دخلوها لا ظالمين ولا مظلومين ولا من العلماء الذين تابعوا معلم العلماء ومؤدب الادباء فى أقواله وأعماله وأحواله وسلكوا وراءه الصراط المستقيم مثل الامام أحمد ابن حنبل الذى ما أكل البطيخ لانه ما علم كيف كان رسول الله يأكله

ولا أنت من العقلاء الذين كانوا اذا أعجبهم الكلام سكتوا واذا أعجبهم السكوت تكلموا وكانوا لا يفرحون الا بالمصائب ولا يحزنهم الا اقبال

الدنيا عليهم

ولا أنت من الادباء الذين يؤاخذهم الله بالخواطر النفسانية لكيلا يتعودوها فتتدنس قلوبهم فقد حكى عن الجنيد رضى الله عنه أنه رأي رجلا قويا يسأل الناس ما يقتات به فخطر على قلبه أن لو اتخذ له حرفة تعينه على القوت لكان خيراً له فلما كان الليل رأى فى المنام أن الرجل موضوعا على آلة من خشب كالميت وقيل له كل لحمه كما اغتبته فى نفسك وانتقدت حاله معترضا فقال وهل كان الا خاطراً نفسانيا فقيل له مثلك يؤاخذ بالخواطر فلما أصبح الصباح تفقد الرجل فوجده يلتقط قشور البقل من الماء فى موضع غسله فلما رأى الجنيد بادره بقوله سامحتك على أن لا تعود فعلم الجنيد أنه من أرباب الاحوال

فهل يسعك يانفسي فى ذلك اليوم الا ما يسع الذين ينادون هنالك وامتازوا اليوم أيها المجرمون ولا يزال يناجيها بمثل هذه النصائح حتى ينتشل من أو حال تلك الدعاوى الباطلة فكم فى الناس من حكيم أظلم بصيرته الاعجاب حتى عمى فى طريق الحكمة عن مواقع قدميه وكم من ذي أدب أوخذ بهفوة فرد الى أصطبل الدواب بعد ما كان فى مقدمة الادباء وما أرجعه الى حاله الاول الا عفو الله

ولما كان الدين السماوى هو ينبوع الحكم وميزان الاعتدال وصراط الاستقامة ومنهج النجاة ومعراج الوصول الى أعلى عليين وراء النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وذلك حال شريف لا يصل اليه الا أهل الآداب الكمالية الذين ساقتهم العناية وقادم التوفيق واكتنفتهم الرحمة وسبقت لهم السعادة

تحتم علينا الآن أن نبين سبب اختلاف الطوائف فى مسار بهم ومشاربهم ونبين حقائق الاعمال ونصف للناس الدين بوصفه الحقيق ليتبين الرشد من الغى ويكون للعقلاء الخيار فى سلوك احدى الطريقين وسكنى احدى الدارين والله يقول الحق ويهدى السبيل

فأما سبب اختلاف الطوائف والاحزاب فما هو الا اختلاف الاستعدادات والقوابل الذى اقتضاه الابداع التكوينى لانه لو كانت الناس على حال واحد فى الصور والالسن والطباع والاخلاق والعوائد والاعتقادات والآراء وغير ذلك من الشؤن البشرية لاختل النظام ولما صح أن يكون فى الناس شقي وسعيد ورئيس ومرؤس وخادم ومخدوم وقوى وضعيف وطيب وخبيث وفاضل ومفضول وعالم وجاهل وتابع ومتبوع الى مالا يتناهى من الشؤون المتضادة التى لم تكن لولا اختلاف القوابل والاستعدادات وهل وجدت الموجودات الامن طريق الاختلاف لانها أصلية العدم وموجدها أصلى الوجود وشأنها الحدوث وشأن موجدها القدم ومخالفة القديم للحادث من المعلومات الضرورية اذ لولا مخالفة القديم للحادث ما كان إله ومألوه ورب ومربوب وكذلك لولا اختلاف الموجودات فى نفسها ومخالفة بعضها لبعض لما تم لها نظام لانه لو شابهت المؤثرات مواقع تأثيراتها من كل الوجوه لما وقع التأثير متى اتحدت القوى وتشابهت الشؤن ألا ترى أنه لولا اختلاف العناصر الاربع لما قام لموجود من المخلوقات السفلية قائمة وكم من آية وردت فى القرآن الكريم دالة على أن الاختلاف بين الموجودات المتضادة أقوى برهان على الوهية الحق سبحانه وتعالى لانذكر منها الآن الا احدي الآيات التى تشير الي ان اختلاف الناس فى العقائد والمذاهب آية

من آيات الله تعالى وهى قوله لنبيه (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) فلو أن من القوم عقلاء أو علماء أو حكماء أو أدباء لتسارعوا الى مواقف ذلك المعلم الذي وقف في مقام العبودية يدعوا الناس اليها ويبين لهم الطريق الموصلة الى الخروج من مضيق تهديد هذه الآية التي تفتت أكباد العارفين وتمزق قلوب الخائفين ولكن أكثر أهل هذا الزمن لا يفقهون أولا يعقلون أولا يؤمنون فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون

وأما بيان الاعمال فقد علم العقلاء من الناس أن الاعمال هى مظاهر الاستعدادات والقوابل وأن اختلافها أى الاعمال تابع لاختلاف القوابل والاستعدادات وأنها مطايا العمال الى ماهم اليه صائرون فاما الى نعيم لا عذاب معه وسرور لايخالطه حزن واما الي نعيم بعد عذاب واما الى عذاب لا نعيم قبله ولا بعده

وانها أى الاعمال لتنقسم الى أربعة أقسام لا خامس لها فيما أظن وهى عبادات ومعاملات وطيشيان وعبثيات لان الناس قد قسمها الله تعالى الى قسمين وفرقهم فى مبدإ التكوين الى فريقين وما كل فريق تتساوى أفراده فى الدرجات والشؤون لان اختلاف القوابل والاستعدادات يمنع التساوي بين افراد المخلوقين منعا بتاحتى وان كانوا رسلا كراما أومن اخوان الشياطين وصاحب العقل الصحيح والنظر المبصر لاينكر ذلك ولما كانت الاعمال هى بمنزلة المطايا للعمال كما ذكرنا وكانت الأوامر والنواهى الشرعية بمنزلة الموازين التى يتبين بها العامل حاله مع ربه اذا أظهرت عليه أعماله آثار قابليته واستعداده وجب علينا الآن ان نبين حقائق أقسامها بايضاح مفصل ليعلم العقلاء أن الله

سبحانه وتعالى ما أنعم على عباده بنعمة أفضل ولا أكمل ولا أكرم ولا أتم من نعمة التعليمات الكمالية التى بعث بها اليهم الرسل وأنزل عليهم بمجملاتها الكتب لعلمه جل شأنه ان الانسان لو ترك وشأنه بلا تعليم ولا تأديب لكان أوحش من الوحوش وأبهم من البهائم وشر من الحشرات ولكان أسوء حالا من جميع الحيوانات لانه أقدرها على تناول أغراضه والظفر بما يبغى ومن المعلوم أن الانسان لا يستحسن من الاعمال الا ما يلايم أغراضه ولا يستقبح منها الا ما ليس بينه وبين شهواته تلايم وكل امرىء لا يرى عمله الا حسناً بدليل قوله تعالى (وكذلك زينا لكل أمة عملهم) ألا ترى أنّ الانسان الذى أصبح مقهوراً لطبعه وعادته قد يغدوا منحرف المزاج منقّص البال حتى اذا تعاطى ما اعتاده من الدخان وما شابهه من المسمومات التى لا يناله من تناولها الا الأذى فى العقل والمال والبدن هدأ باله واعتدل مزاجه الى غير ذلك من الأعمال السيئة القبيحة التى يراها عاملها حسنة وهى عند الله قبيحة فلذلك قلنا أن الوصول الى تمييز الاعمال متوقف على العلم بالشرائع السماوية وذلك العلم هو الذى تميز به الانسان عن باقى الحيوانات التى أشار اليها الحق سبحانه وتعالى بقوله (وما من دابّةٍ فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم) لا يريد الحق سبحانه وتعالى بقوله (أمثالكم) مثلية الصور والألوان ولكنه يريد مشابهة الأعمال الاعتيادية التى هى من ضروريات المعيشة فلذلك جئنا بهذا البيان تنبيهاً للعقلاء ليعلموا الطريق التى بها تميز الأعمال وعمالها والتى منها تعرف درجات العاملين عند ربهم ومقدار ماربحه أهل الاعمال الصالحة من الحظوظ الأزلية عند تخصيص القوابل والاستعدادات أو عند التصوير فى الأرحام كما ورد به القرآن فى قوله

تعالى (هو الذى يصوركم فى الارحام كيف يشاء) وفى كثير من الاحاديث النبوية وليعلم العقلاء مقدار ماخسره القوم المشار اليهم بقوله تعالى لنبيه (قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً) فلذلك خاف أهل الايمان وخامة عواقب متابعة الظنون والاهواء فاختاروا حسن الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم والمحافظة على متابعته فى دقائق الأعمال والأقوال والاحوال ورقائقها فسلموا حيث تهاون بها المتفلسفون فندموا فرأينا من واجب النصيحة أن نطرح واضح البيان بين أيدي أولى الألباب ليتذكروا فيتطهروا من خبائث الغرور والطغيان لأنا نرى أن كثيراً منمن يزعمون العقل والمعرفة قد راقت فى نظرهم أعمال النسوة فدأبوا عليها ومالت قلوبهم الى التلبس بها فهجروا مزايا الرجال وبلغت بهم درجة استحسان ماهم عليه الى حدّ استقبحوا فيه الأعمال التى كان عليها الكمل من الرجال فلو أكرهت شاباً أو رجلا متمدينا على أن يعفوا لحيته أو يقص شاربه لرأى أن ذلك أشد من القتل ويا ليتك تري أكابر الموظفين الذين أنيطت بهم الأعمال الهامة اذ هم فى مقابلة المرآة عند التأهب للخروج وهم عاملون فى صقالة الشعر وتسوية الأشناب وتحسين الهيأة مالا تعمله النسوة واذا سئلوا عن الحكمة قالوا ان رسول الله كان يفرق شعره فى المرآة فهلا اقتدوا به فى كل أعماله وهل علموا حكمة عمله الشريف فلو رأيتهم إذ ذاك لعلمت احتياج الانسان الى الآداب الشرعية والتعليمات السماوية ولكن أكثر الناس لا يفقهون

والنبدأ بأشرف الأعمال بيانا فنقول والله يقول الحق ويهدى السبيل.

أما العبادات فهى كل أمر أو نهى تقرر تشريعه عن وحى سماوى

وليست الشرائع السماوية الا الآداب الكمالية التى خلق الانسان محتاجاً لمعرفتها ليقوم بواجب رتبته الوجودية التى خصصت له من بين المخلوقات وهى كونه عبداً مستخلفاً فى كل ماسخره الله له من العوالم وكونه مأموراً بأن يقوم بأداء واجبات الشكر على هذه المرتبة العظمى التي لم يكن فى جميع المخلوقات من له استعداد لها سواه فمن تأدب بتلك الآداب التي أرسل الله بها الرسل طائعاً مختاراً عن محبة ورضاء فذلك هو العبد الذى قام لسيده بواجبات العبودية واستحق عنده الكرامة والرضوان وأما من أعرض عنها وأهملها فهو من الآبقين وكفى بالاباق لؤماً إذا ما صدر من عبد أسبغت عليه نعم مولاه فاستعملها فى العصيان والمخالفة فذلك الذى استوجب المقت والسخط وأنواع الاهانة وما ربك بظلام للعبيد

وليس لقائل أن يقول ما كان ينبغى للملك العادل وهو الفعال لكل شئ والقادر علي كل شئ أن يفعل بعبده هكذا بمعنى أنه يقدر عليه العمل السيئ ثم يعاقبه عليه كما يقول السفهاء منمن لم يجعل الله لهم نوراً

وذلك لان النظام الابداعى الذى تجملت به مظاهر الأكوان ومافيها من العوالم استدعى اختلاف القوابل والاستعدادات فلو أن فرداً من أفرد النوع الانسانى قام فى مقام الجدل قائلا يارب لم خلقتنى شريراً وخلقت آخر من الخيار لناداه لسان الحال قائلا ان الله سبحانه وتعالى ما أمدك من معونة إمداده الا بما تقتضيه قابليتك واستعدادك لأن ما أنت عليه من الأعمال والأحوال هو ماتستدعيه رتبتك الوجودية فلو أن لك الحق فى الشكوي لكان الجمل أو الخروف مثلا أجدر أن تسمع شكواه لأنه مخلوق مثلك وله الحق أن يطالب بدمه الذى سلطك الله عليه هو وأمثاله من الدواب

والطيور فلو أن فى الحكمة مجال للجدل لقام كل مخلوق مقامك فى الشكوى
يا أيها الجهول ولكن الحكيم المدبر الذى تنزه حكمته عن العبث لا يسأل عما
يفعل لانه من العبث أن يقول الظلوم الجهول للحكيم العليم لم فعلت وكيف تفعل

ومن زعم من أفراد النوع الانسانى الذين لم يتبعوا رسالات ربهم أنه
ليس بظلوم ولا جهول فليقم على دعواه دليلا لأنا نرى أن أهل أوروبا وهم المقتدى
بهم اليوم فى الحضارة والتمدين وفى غالب أحوالهم وأعمالهم بل وفى أقوالهم
كأنهم هم الرسل المبعوثون لا موافقة بين أعمالهم وأعمال اهل الايمان كما أنه
لا تساوى بينهم فى الاعتقادات فما أجهل الانسان وما أظلمه وما أسرعه الى
مصارع الطغيان والغرور مع علمه بأنه على حال سيئ من العجز والضعف والذلة
والفاقة وانه لا يصلح الا لان يكون عبداً وأن سعادته فى القيام بواجبات عبوديته
وأنه لا يتمكن من أداء تلك الواجبات الا اذا تعلم ما علمه الله سبحانه وتعالي
من أنواع العبادات التى من شأنها ان تجعل العبد قريبا من ربه بعيداً عن نفسه
وشيطانه ولا معنى لقرب العبد من ربه الا علمه بأنه معه أينما كان فلا يعمل
الا ما يرضيه ولا يقول الا ما يجعله عنده صادقا ولا يتلبس الا بالاحوال التي
يحبها كما أنه لا معنى لبعد العبد من نفسه وشيطانه الا ايثار أوامر الله ونواهيه
على شهواته وأغراضه فى كل حال وقول وعمل فلا يهوى الا ما يحبه الله ولا
يبغض الا ما يمقته الله ولكن اكثر الناس لا يعلمون

297:J33iA:v.1:c.1
الجنبيهى ،محمد
ارشاد الامم الى ينبوع الحكم
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01003384

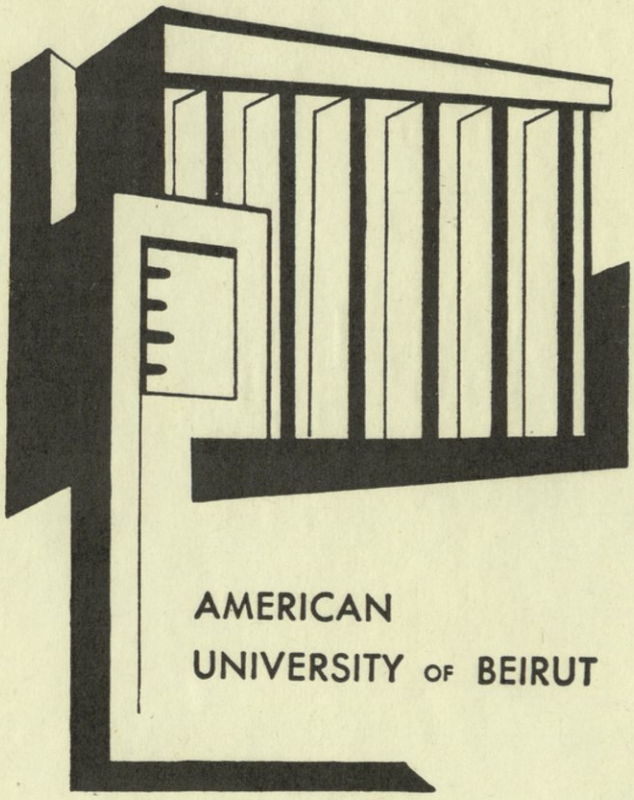

297
J33:A
V.1
C.1

297
J33:A